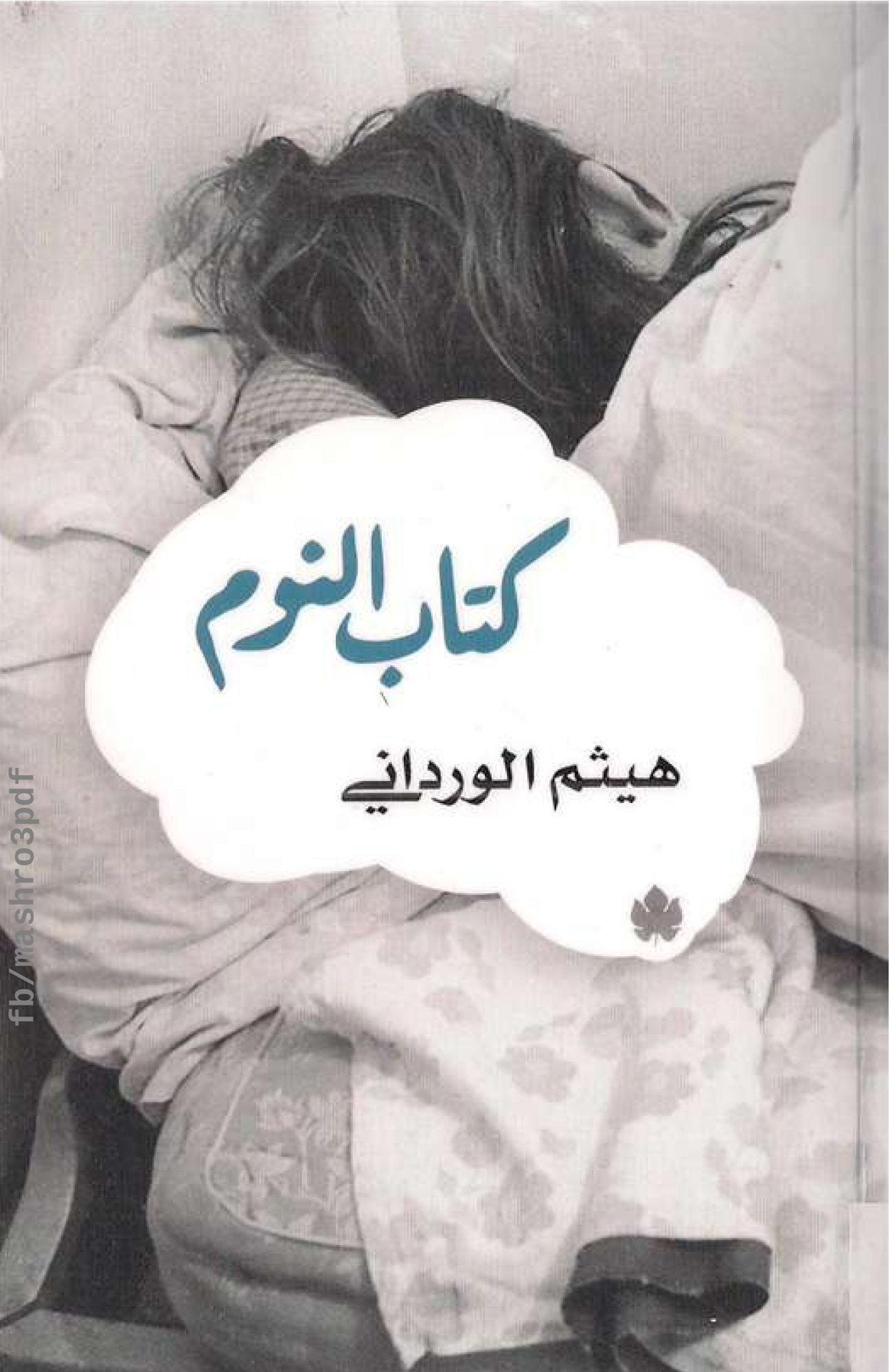

fb/mashro3pdf

هيثم الورداني

كتاب النوم

fb/mashro3pdf

إلى عبد العظيم الورداني
الذي لم ينم يومًا قَطُّ.

fb/mashro3pdf

المحتويات

مقدمة ٩

مملكة الأشياء ١١ القانون الأول ١٢ المكان النائم ١٣

قلب البيوت ١٥

المطمئن ١٦ رقة الراديكالية ١٨ مبدأ الأمل ١٩

معركة حقيقية ٢١

هدر ٢٢ نَفَس ٢٤ أوان العودة ٢٥

حكاية قبل النوم ٢٦

تقنية ٢٨ غيبوبة ٣٠ غاز ٣١ غيبة ٣٢

آلة عجيبة ٣٤

العنقاء ٣٥ طول السهر ٣٦ لغة الألم ٣٧ في قلب الليل ٣٨

ظَهر العالم ٣٩

واحد طويل ٤١ مبني للمجهول ٤٢ نقطة الصفر ٤٣ سابع يقظة ٤٤

أخلاق القطط ٤٦

نهر جوفي ٤٧ نداء ٤٩ فكُّ ارتباط ٥٠ أرق صباحي ٥١

قوة خفية ٥٣

من هو النائم؟ ٥٥ من هو النائم؟ ٥٦ من هو النائم؟ ٥٧

ننصبُ فخًّا ٥٨

صلة غرابة ٦٠ غياب مشترك ٦١ الحديقة المعلقة ٦٢

أرض جديدة ٦٤

بقعة ظلٍّ ٦٦ تدريب طويل ٦٧

قفزة في الهواء ٦٩

fb/mashro3pdf

ماذا يحدث عندما ننام؟ ٧٠ بنية الفجوة ٧١
غيض ٧٣
برزخ ٧٥ محارة ٧٦ جزيرة نائية ٧٧
السُّلطة ٧٩
جوف الأرض ٨٢ العين الساهرة ٨٣ قانون طوارئ ٨٤
ضفائر ذهبية ٨٧
حياة جديدة ٨٨
أهل الكهف ٨٨ الحيوان الجالس ٩٠ لغة غريبة ٩١
لسان النار ٩٣
التابع ٩٤ خلط ٩٦ أساطير الأولين ٩٧
بستان ٩٩
عتبة يومية ١٠١ هوَّة يومية ١٠٢ المدينة الفاضلة ١٠٣
المدن الجديدة ١٠٥
يدخلُ حيًّا ١٠٦ يدخلُ حيًّا ١٠٧
الأسماء ١٠٩
مسألة استماع ١١١ صوتك ١١٢ دوزنة ١١٣
نهج البلاغة ١١٤
غبطة ١١٧ بلا نجوم ١١٩ سحر البروليناريا الخفي ١٢٠
تبادل ١٢٢
قلب صغير ١٢٣ خيط ١٢٤
وظيفة المؤلف ١٢٥ الكتابة ١٢٧ فيتيشية ١٢٨ ولادة ثانية ١٣٠
طرف غائب ١٣١
لحم ودم ١٣٣

fb/mashro3pdf

مقدمة

يمكن قياس نبض النائم ورسم موجات دماغه. ويمكن أيضًا تحويله إلى مسرح نفسي تتكرر عليه كل ليلة مأساة «أوديب». يمكن بالمثل أن تنجح الدراسات العلمية في تشريح ظاهرة النوم، وأن تنجح قرينتها النظرية في بحث موضوعه، لكن النوم نفسه يظل بعيدًا في كل الأحوال. يعيش في زاوية قصية مظلمة. يشارك من بعيد، من دون رغبة في الاقتراب. لكن القريبين لا يفهمون معنى أن يكون الواقع قابلًا للمشاركة عن بعد، ولا يرون في ذلك سوى تناقض بيِّن، فيسعون دائمًا إلى إحضار النوم إلى يقظتهم عندما يلتفتون إليه، متجاهلين حقَّه الذي يُصرُّ عليه كل ليلة في الحضور غائبًا. لذلك فالنوم بحاجة إلى العمل، لأن الأخير وحده من يسعى لتلمُّس أثره الخافت، من دون أن يرغب في إحضاره أو تحويله إلى موضوع. العمل لا يريد قياس النوم ولا تشريحه، وإنما يرغب في الذهاب

fb/mashro3pdf

إليه هناك بعيدًا حيث يوجد. ومثلما يسلم النوم نفسه إلى العمل، يسلم العمل نفسه أيضًا إلى النوم. ويمرُّ أحدهما إلى الآخر، كما يمرُّ الرأس إلى الوسادة. فالعمل يحتاج أيضًا إلى النوم. إذ يلوح في البداية كاحتمال بعيد، ينكبُّ الكاتب عليه لكي ينجزه فيزداد صعوبة، يثابر ويجتهد لكي يخرجه إلى النور فيزداد نأيًا. وكلما أحكمت القوة التي تريد تشكيله قبضتها عليه، أصبح العمل أكثر استحالة. وهكذا يظل الكاتب عاكفًا على حلِّ المعضلات التي تواجهه حتى يهده التعب ويغلبه النوم، لتجدد أخيرًا إمكانية العمل. فقط عندما يُسلم الكاتب نفسه إلى النوم، وتنقطع القوة التي تُحكم سيطرتها على العمل، يصبح الأخير ممكنًا مرة أخرى، لأنه يعود إلى نفسه بعد أن كان مجرد صورة لتلك القوة. فالعمل لا يريد أن يُصنع، وإنما يريد أن يحدث. ولكي يحدث يتعين عليه أن يجد مكانًا له على هامش قوة تشكيله. العمل ينشد النوم لأن الأخير يقبل بالتناقض والانزياح، فيصبح بإمكانه أن يكون حاضرًا وغائبًا في آن، ظاهرًا ومختفيًا، في المركز وعلى الهامش. النوم والعمل كلاهما بحاجة إلى الآخر. فالأول يريد من يقترب منه من دون أن يوقظه، والثاني يريد من ينساه لكي يعود ممكنًا.

الغرفة عامرةٌ بأشيائها. هناك مكتبة صغيرة بجوار الباب، وأباجورة بجوار السرير. هناك حقيبة سفر بحذاء الحائط، وأصيص زرع على إفريز النافذة. في درج المكتب يوجد جواز سفر وقسيمة زواج، وفي درج التسريحة يقبع قرط ذهبي وإسورة. قميصٌ زاهٍ أُلقي بإهمال فوق الكرسي، وجورب مقلوب تُرِك على الأرض. نخلف كل هذا وراءنا وننجذب نحو فجوة تُدعى النوم، حيث يتوقف الزمن لوهلة، ونظن أننا انتقلنا إلى مكان آخر. لكننا ما إن ندخلها حتى يُلقى بنا مرة أخرى إلى الغرفة نفسها. هذه المرة ليس كقوة مسيطرة، وإنما كشيء ضمن أشيائها. الشيء الذي أصبحناه ونحن نيام يدفعه تعاطفٌ جارفٌ نحو الأشياء الأخرى، فيتسرب شيئًا فشيئًا إلى الوسادة، ثم إلى الفراش، ثم إلى الغرفة. ومثلما تحولنا نحن إلى أشياء، تتحول الأشياء في غرفنا أثناء النوم إلى كائنات أخرى غير تلك التي عرفناها. فهي تفقد خضوعها، وتعود شيئًا فشيئًا إلى نفسها. هي الآن ليست مواضيع وأدوات وإنما أجساد تسري فيها أيضًا حركة داخلية خفيَّة. إنها أشياؤنا التي تشبهنا ونشبهها. وكلما توغلنا في النوم ترسبنا أكثر فأكثر في الأشياء، أو ترسبت هي فينا، أو ترسبنا جميعًا في الغرفة. في أخوية

fb/mashro3pdf

النوم لا نلتقي الأشياء على خطوط السُّلطة، وإنما نلتقيها في قلب صيرورة المادة الأولى. فيخترقنا فيض جسيماتها الأولية، وتسري فينا نبضة قديمة قدم الكون.

القانون الأول

لا فكاك من الجاذبية في نهاية المطاف. فهي تشدُّ الأشياء نحوها بصرامة إذا ابتعدت، وتضمن دورانها في أفلاكها إذا احتفظت بالمسافة اللازمة. تُنزل البيوت والبشر والنجوم منازلها، وتنظم جريان الحروف والعلامات في مجالها، ولا تترك شيئًا يخرج عن طوعها. الجاذبية هي القوة الحارسة لنظام الكون، وفي مجالها نشأت الحياة كمحاولة عابثة للتمرد عليها. كل صباح تبدأ معارك الوقوف على «الحيل»، تلك التي لا يُدخر فيها جهد، من أجل «صلب الطول» والانعتاق من الجاذبية. تنفتح خلالها أبواب وتنغلق أخرى، تنجح أشياء في الانفلات وتتعطل أخرى. يتعثر بشر، ثم يعاودون الوقوف من جديد. وهكذا طيلة اليوم. حتى يحلَّ الليل فتُعقد هدنة مع تلك القوة الصارمة، ويتوقف الصراع مؤقتًا. وها هي الأرض تتمدد ليلة وراء ليلة كحقيقة طال

fb/mashro3pdf

نسيانها، وتتلقف ما يقع في حجرها. الأرض التي يذرعها المرء ويشقها كل يوم، يزرعها ويفلحها، يبني فوقها ويحفر تحتها، ها هو الآن يسقط في حجرها نائمًا، ويترك نفسه لقوتها الهائلة التي قضى يومه في ترويضها. في هذه النقطة الأكثر قربًا إلى الأرض يكتمل عمل قوة الجاذبية، ويتم بتسليم الأرض وديعتها. هي بضاعتها وقد رُدَّت إليها. غير أن الصراع لا يكاد يُحسَم حتى يحدث ما يفوق التوقع. فلحظة التسليم والإذعان هي لحظة التحرر. اللحظة التي يستسلم فيها النائم للجاذبية وينبطح أرضًا، هي اللحظة التي يطفو فيها وهو منعدم الوزن، متحللًا من كل ما يشده إلى أسفل. ولوهلة يعادل النوم الضعيف تلك القوة الجبارة التي يقوم عليها الكون. فقط لوهلة.

المكان النائم

عندما يتحرر النوم من الثنائية التي تفرضها اليقظة، عندما يتوقف عن لعب الدور الذي رسمته له كضدٍّ لها، أو كوقت مستقطع تلتقط فيه أنفاسها، عندها يصبح نقدًا لليقظة ولكل ما تطرحه من أنظمة ثنائية. فواقع النوم ليس واقعًا

fb/mashro3pdf

نقيضًا لواقع اليقظة، وإنما هو امتداد له، ولكن بترتيب جديد. النوم يُعلِّق عمل الجاذبية فيخلط المكان الداخلي بالخارجي، واليقظة تُعيد الجاذبية فتُقسِّم الواقع إلى مكان خارجي نتشارك فيه، وآخر داخلي نغلق فيه على أنفسنا. وعندما يتحرر النوم ينسلُّ من الدرج الذي خصصته له اليقظة، ويشرع في خلط محتويات باقي الأدراج. فالمكان الذي تعرِّفه اليقظة بأنه حيز منقسم ومتجانس، يصبح أثناء النوم حيزًا قابلًا دومًا للتداخل والامتزاج. الذات التي تأسست كمكان داخلي مقتطع من المكان الخارجي، ومنقسم بدوره إلى غرف فرعية، هذه الذات تتسلل أثناء النوم إلى الخارج لتمتزج بالعالم، وتفقد شيئًا فشيئًا حدودها الداخلية، فتختلط غرفة أسرارها بغرفة آلامها، وغرفة ملاذها بغرفة مجونها. والمكان الخارجي الذي يسكنه جسد النائم يتعكَّر تجانسه بحضور الغياب، ويتصل بقوة تعطل عمل الحدود. فلا يعود هو المجموع الهندسي للغرف والأجزاء التي ينقسم إليها، ولا يتحدد بالعلاقات بين الأجساد الحاضرة فيه، وإنما برغباتها وهذياناتها بعد أن غابت في حضورها. حدود المكان النائم باتت لا تكمن في جغرافيته، وإنما في طبيعة ما ينبض داخله. هذه غرفة نوم في إحدى مدن القرن الحادي والعشرين، تنبعث فيها أطياف طفولة تنتمي إلى قرية من القرن العشرين، يلوح

fb/mashro3pdf

فيها أناس فقدوا أعمارهم، وتسرح فيها رغبات لا تعرف الحواجز. النوم لا يحدث داخلنا أو خارجنا، وإنما يحدث عندما يختلط كل شيء.

قلب البيوت

من أين جاءت كل هذه الأشياء؟ وقفتُ حائرًا أمام هذه الكومة التي تراكمت بجوار باب بيتي، وظللت أنظر إليها محاولًا تمييز الأشياء التي تحتويها، لكني كلما ميزت منها شيئًا عاد وتداخل مع باقي الأشياء مرة أخرى. ومن الخارج تناهى إليَّ صوت تنفس شخص ظننته البواب، مختلطًا بصوت انسحاب مكنسته على الأرضية أثناء تنظيفه للسلم. كانت الأشياء التي أراها ملقاة أمامي مألوفة وغريبة في آن. تذكرني بالكومات التي استحالت إليها غرف بيت عائلتي بعد أن أصبح آيلًا للسقوط. حتى استطعتُ أخيرًا تمييز حقيبة «سمسونايت» صغيرة حمراء وأخرى خضراء. هذه شبيهة بحقيبة كانت لديَّ، وتلك شبيهة بأخرى كانت لدى أبي في زمن غابر. لم تكن الحقيبتان كابيتين أو متربتين، وإنما اكتسبتا لدهشتي ألوانًا جديدة وزاهية. ثم وقع نظري فجأة على صديري كان

fb/mashro3pdf

معلقًا على مقبض باب الشقة من الداخل. برز الصديري لوهلة وسط ركام الأشياء التي شعرت أنني أنتمي إليها بالرغم من غرابتها عني، فخمنت أن الصديري يخص البواب الذي لا أراه، وهجست أنه هو من أحضر تلك الأشياء هنا بطريقة لا أعرفها ونسي الصديري الخاص به. وبقيتُ واقفًا أمام كومة الأشياء تلك لا أعرف ماذا أفعل معها، ولا أدري كيف تسللَت إلى بيتي. تارة أتأملها، وتارة أتعجب من حضورها. كلما أطلتُ النظر إليها طَفت على سطحها تفاصيل أكثر وضوحًا. هذا كتاب، هذه خرقة، هذا كوب، هذه صورة. ثم سرعان ما تعود مرة أخرى إلى الامتزاج. ومن الخارج كان يأتيني بانتظام صوت تنفس الشخص الذي لا أراه، والذي اختلطت أشياؤه بأشيائي الآن، مصحوبًا بصوت حركته وهو ينظف السلم على الجانب الآخر من الباب الفاصل بيننا.

المطمَئن

يحدث أن يتوقف الحيز الاجتماعي عن أن يكون ساحة للتفاوض والصراع، ومجالًا لتبادل الآراء والحوار، ليظهر ساعتها ملمحٌ آخر خفي في التجربة الاجتماعية، وهو

fb/mashro3pdf

الصمت المشترك. النوم في المواصلات، أو الميادين العامة، في قاعات الدرس، أو أثناء العمل، هو رفض مضاعف للفعل الاجتماعي، إذ إنه لا يحدث في غرف النوم الخاصة، وإنما في قلب أماكن الاحتكاك الاجتماعي التقليدية. النائم في العمل يمتنع عن العمل، والنائم في المواصلات يكُف عن مشاهدة إعلانات الطريق، والنائم في الميدان العام يُمسك عن التواصل مع الآخرين. النوم يلمس المجال العام بعصاه فيحوله من مجال للتفاوض والصراع إلى مجال للصمت والغياب. فيصبح الأخيران نشاطًا جماعيًّا وليس شأنًا خاصًّا. على أن النوم في فشله الاجتماعي لا يحوِّل المجال العام إلى مجال للجفاء والتجاهل، وإنما - ويا للغرابة - إلى مجال للثقة والاطمئنان. ففي قلب الإضراب الاجتماعي الذي يشكله النوم تلوح ثقة جديدة في الآخر. ثقة مجهولة المصدر. فالنائم في الأماكن العامة لا يتفاوض أو يتصارع مع الآخر، لا يتحالف أو يتواصل، وإنما يسلم أمره له، ويكشف أمامه ضعفه وهوانه وقلة حيلته. النوم في الأماكن العامة هو إذن إعلان ثقة في الآخر. وآخَرُ الأماكن العامة الذي ينام المرء بجانبه مطمئنًّا ليس شخصًا واحدًا، وإنما هو جماعة من الغرباء المجهولين تظهر مصادفة. جماعة لا يرغب المرء في معرفة أفرادها وإنما يطمئن إلى جمعهم ويترك نفسه ليصبح غريبًا مثلهم.

fb/mashro3pdf

الأجساد التي تسير في المكان العام هي أجساد متأهبة، يسري فيها قدر مضبوط من التوتر، يسمح لها بالتجاوب مع ما حولها، وأخذ رد الفعل المناسب. والفعل الراديكالي الذي يحدث في المكان العام بحاجة إلى أجساد أكثر توترًا واحتشادًا لمواجهة المخاطر التي قد تعترض طريقه. فهي أجساد دخلت في صدام مفتوح مع السُّلطة من أجل إعادة تشكيل المكان العام. ومن بين كل أشكال الفعل الراديكالي يشكل الاعتصام نوعًا فريدًا، لاحتوائه على تعقيد بالغ. فهو من ناحية يجسد ذروة الحركة الاحتجاجية وأكثر لحظاتها خطورة، لأنه يأخذ زمام المبادرة، ويصنع واقعًا جديدًا من خلال «احتلال» المكان العام. ومن ناحية أخرى لا يكتمل سوى بفعل آخر شديد الهشاشة، يكاد يكون نقيضه، وهو فعل النوم في مكان الاعتصام. النوم في الاعتصام هو قلب الاعتصام وجوهرته التي يبحث عنها الجميع، وكل اعتصام لم يفترش فيه المعتصمون مكان اعتصامهم لا يعوَّل عليه. لذا يدور الصراع دائمًا حول منع المعتصمين من النوم في مكان اعتصامهم، لأنهم متى تمكنوا من ذلك أصبح اعتصامًا ذا تبعات سياسية. فعل الاعتصام الراديكالي، المنطوي على

fb/mashro3pdf

مخاطرة واضحة، لا تتم راديكاليته إلا عندما يتخلى عن نفسه، ويحل محله فعل «خامل»، فعل يقوم على نقد مبدأ الفعل، وهو النوم. وفي هذا «الخمول» بالضبط تكمن القدرة على خلط العام بالخاص، وجعل الحيز العام خاصًا، والخاص عامًا، فيتحقق هدف الاعتصام. الجسد الراديكالي المتوتر والمحتشد ينبسط وتتراخى أوتاره، يتخلى عن دِفاعاته، مُظهرًا ضعفه وهشاشته. ومن خلال تراكم وتجاور الضعف والهشاشة، من خلال مشاركة التعب والألم وكشفهما أمام أعين الجميع، يتحول النوم إلى مصدر للقوة ووسيلة للتغيير. النائمون في اعتصام مفتوح لم يعودوا أفرادًا في معركة، وإنما في استلقائهم بجوار بعضهم يصبحون وسيطًا لواقع جديد، أحلامهم هي لغة هذا الواقع الذي يسعون لفك شفرته.

مبدأ الأمل

نودِّع العالم ونحن نعرف أنه باقٍ من دوننا. لا شيء سيتوقف من أجلنا، ولا شيء سيتأثر بغيابنا. لقد بذلنا قصارى جهدنا لكن أفعالنا لم يُكتب لها الاكتمال، وها هو

fb/mashro3pdf

اليوم ينقضي سريعًا. نودِّع العالم ونضع رؤوسنا على الوسائد. لكننا لا نودِّعه ونحن حزانى وإنما ونحن مفعمون بالأمل. فهناك، في قلب الظلام، سرعان ما سنلتقي أملًا ينمو بهدوء، أملًا يقوى عوده كلما أوغلنا في الليل، أملًا في الاستيقاظ، أملًا في أن ينجلي الظلام، أملًا في الغد، أملًا في بداية جديدة، أملًا في أننا عندما سنفتح أعيننا غدًا سيكون كل شيء على ما يرام. هذا الأمل يونع في جوف الليل كثمرة، تنمو في الظلام، وتزداد حلاوتها كلما ازدادت حُلكة الليل. الوصول إلى تلك الثمرة هو هدية النوم، فكل نوم هو ممارسة حقيقية للأمل، تدريب طويل على الانعتاق والتحرر. لكن إلى ماذا يستند هذا الأمل؟ الأرجح أنه يستند إلى ثقة لانهائية في المجهول بعد تجاوز الخوف منه، ثقة في الغياب بعد أن أسلمنا أنفسنا إليه. هي ثقة لانهائية في العالم الذي نودِّعه كل ليلة ونحن مطمئنون إلى أننا في أيدٍ أمينة. هذه الثقة تنشأ بعد أن نفقد موقعنا المسيطر على العالم، ونستودعه أنفسنا ليفعل بها ما يشاء. لذلك فالأمل الكامن في النوم ليس كأي أمل، بل هو مبدأ الأمل. فهو لا ينبع من رغبة مرتبطة بموضوعها، وإنما ينبع من الرغبة الكبرى التي تتجاوز أي موضوع، الرغبة في العبور إلى الضفة الأخرى والانتماء إلى المجهول.

fb/mashro3pdf

ذات مساء وقفت أمي في غرفة بيت مؤقت استأجرتُه في مدينة بعيدة، تعتذر من رجل مريض عن عدم استطاعتها الاعتناء به الآن، وتعده بأن تفعل ذلك بعد قليل. بينما جلس هو يعاتبها على ذلك ويحاول أن يبتزَّ عواطفها، مسرِّبًا لها شعورًا بالذنب. كان يرتدي جلبابًا أبيض، ويتنفس بصعوبة. ولم يكن يشبه أبي، لكني لم أستطع التخلص من هاجس كونه بالفعل أبي الذي تُوفِّي قبل أشهر قليلة إثر مرضه. كنت مشتت الانتباه، أتابع ما يحدث بصعوبة لأني كنت مشغولًا بتنظيم ذهابي إلى المعتقل لمدة يوم واحد. فقد حتمت عليَّ الظروف، لأسباب لم أدركها، وإن بدت لي منطقية، أن أحل محل أحد أصدقائي في المعتقل. كنت أتحدث مع صديقي ذاك على الهاتف ليخبرني ما يتعين عليَّ فعله بالضبط، ويمدني بتفاصيل عن الزنزانة وظروف الحياة فيها. ومن حين إلى آخر كنت أسترق السمع لأتابع الحوار الدائر بين أمي والرجل المريض، ثم أعود سريعًا لمشاغلي. سألتُ صديقي إذا ما كان هناك تعذيب أم لا، وسألته عن كيفية النوم في الزنزانة. ونصحني هو بأن لا أقلق وأن أحمل معي مئزرين، أحدهما ألتحف به، والآخر أحيط به وسطي. ثم تذكرت أن عليَّ أن أكتب

fb/mashro3pdf

رسالة إلكترونية إلى جهة عملي لأخطرهم بغيابي يوم دخولي المعتقل، ولاحظتُ أثناء كتابتي للرسالة أن أمي ثابتة بصلابة عند موقفها الرافض للعناية بالرجل بالرغم من كل الحجج التي كان يسوقها. لم أكن أشعر بالخوف وأنا أجهز ذهابي إلى المعتقل، وإنما بالتوتر. ولم تكن لديَّ أية نية للمقاومة. كنت فقط أسير بخضوع في طريق تسليم نفسي لتلك القوة الغاشمة التي لا أعرف عنها شيئًا. أما أمي فقد كانت تنسلخ عن جلدها، وتقدِّم نفسها على الآخرين على غير عادتها. كانت تخوض معركة حقيقية، تحشد فيها كل ما تملك، تعاند ضعفها ورِقة قلبها، وتكاد تخرج منها منتصرة.

هدر

التاريخ لا ينتظر النيامَ حتى يستيقظوا، وإنما يكتبه المستيقظون وحدهم. إذ ما الذي يستحق التسجيل في ساعات النوم لكي يجعل كتب التاريخ تضعها في حسبانها؟ ساعات زائدة لا نفع منها ولا شفع. لكن هذه الساعات لا تذوي أو تتضاءل كأي شيء نافل، وإنما

fb/mashro3pdf

يزداد عددها ليلة وراء ليلة، لتصبح حشدًا كبيرًا. وعلى النقيض من أي حشد آخر لا تستطيع تلك الساعات أن تكتسب وزنًا يذكَر مهما زاد عددها، فتبقى دائمًا هائمة في الخلفية، بلا تأثير، ومن دون أن يلتفت إليها أحد، كسرٌّ مهمَل يعرفه الجميع من دون الحديث فيه. وهكذا ظَل النوم على مر السنين مبثوثًا فوق صفحات التاريخ كهباء منثور. قد يُختزل على شكل حلم هنا، أو رؤية هناك، وما عدا ذلك يبقى خارج تلك الصفحات، روحًا تهيم في كل ما لم يُكتب فيها. الإجابة التي يقدمها النوم على هذا الاستبعاد هي التكرار. وككل الأشياء الأصيلة يعيد النوم الكرَّة ليلة وراء ليلة، ليخلق من التكرار قانونًا. فيرجع إلينا كل مساء بكامل سلبيته وهوانه وفشله، ويكرِّر إصراره على الهدر المستمر، يكرر انتماءه إلى كل مآسي الماضي. النوم المطرود من التاريخ لا يقدم ولا يؤخر، لا ينتج ولا يراكم، وبالرغم من ذلك فهو الحدُّ الذي لا يستطيع سهمُ التقدم أن يتخطاه. تُرى ماذا يمكن لإنسان التاريخ أن يفعله أمام هذا الهدر اليومي؟ ماذا يمكن أن يفعل بكل ساعات النوم تلك؟ يقلصها قدر الإمكان؟ ينساها تمامًا فور استيقاظه؟ يكبسها فوق بعضها ويجعل منها رقائق ثم يأكلها؟ يسير وسطها كما يسير وسط أوراق الخريف؟ يترك نفسه لها؟ ماذا يفعل؟!

fb/mashro3pdf

بضربة واحدة نتحلل من جميع الأواصر التي تربطنا بأفكار واقعنا العظيمة، ونختفي من الشبكة التي تنسجها حولنا. ننسلُّ من طبقاتنا الاجتماعية، ونخرج من كل دوائر الإنتاج والاستهلاك التي ندور فيها. ثم يُلقى بنا إلى صيرورة المادة لنُحال إلى أشياء، فتصبح أسطحنا ملساء، مثل برتقالة أو كرسي أو عظمة. أشياء متواشجة مع ما حولها، ولا تخفي سرًّا داخلها. غرَقُنا الصامت في أجسادنا يعيدنا إلى لانهائية الاحتمالات الكامنة في المادة قبل أن تأخذ شكلًا. يُرجعنا إلى الطبيعة بكل ما تحمله من لامبالاة وإنكار لأي قيمة. ويربطنا بالقوى العمياء التي تسري في الوجود. تلك القوى الغامضة التي نفق أيامنا عبثًا في محاولة السيطرة عليها، لكي نتقي ضرباتها الغاشمة. هل غادر إذن الشيء الذي أصبحناه ونحن نيام التاريخ؟ إذا كان التاريخ هو سيرة الذوات وصنائعها، فإن الأشياء المجبَرة على السكون لا تقف خارجه، وإنما على تقاطعه مع القوى الأولية التي تحيط به، هناك حيث ينفتح التاريخ على صيرورات غير ذاتية. الأشياء ليست رهينة التاريخ مثل الذوات، وإنما توجد خارجه وداخله في الوقت نفسه. في لغتها الصامتة يسيل الماضي الذي لا حاضر لها سواه. لذلك فالشيء

fb/mashro3pdf

الذي أصبحناه ونحن نيام ينزلق دائمًا من بين أصابع واقعنا، ويتجه نحو الماضي. المادة تتنفس التاريخ. والشيء الذي أصبحناه لم يعد موضوعه، بل مخيلته.

أوان العودة

عندما يحلُّ الظلام يعود الجميع من حيث أتوا. جسيمات «بلاتينيريس» الدقيقة تقضي يومها بالقرب من سطح الماء، تقتات على الطحالب والفتات الهائم. تضرب بشعيراتها الرفيعة فتنتقل من مكان إلى آخر. وعندما تغيب الشمس تنتبه إحدى تلك الشعيرات إلى اختلاف الضوء، فتبدأ في إفراز هرمون «الميلاتونين» الذي يؤذن بأوان العودة. إفراز «الميلاتونين» في جسم الإنسان يتسبب في تغيرات فسيولوجية تُعدُّه للنوم، مثل انتظام التنفس، وانخفاض معدل ضربات القلب، وهبوط بسيط في درجة الحرارة. أما في جسيمات «بلاتينيريس» فيتسبب الهرمون في توقف الشعيرات عن الحركة، فتهوي الجسيمات رويدًا رويدًا إلى أعماق المحيط المظلمة حيث تقضي ليلتها. منذ ملايين السنين تهاجر أسراب الجسيمات الدقيقة كل ليلة إلى الأسفل

fb/mashro3pdf

في إيقاع لا يتغير، تكف شعيراتها عن الحركة بسبب هرمون الظلام فتسقط سقوطًا حرًّا إلى أعماق المحيط. وقرب الفجر يشق أول أشعة الشمس طريقه إلى الأسفل، فتنبه الشعيرة المسؤولة عن الضوء للتغير الحادث، وتمتنع عن إفراز هرمون «الميلاتونين»، فتنشط الشعيرات وتأخذ في الحركة، لتبدأ رحلة صعود الجسيمات إلى السطح. ويدور يوم جديد.

حكاية قبل النوم

يُحكى أن سمكة وقعت ذات يوم في شِباك صيَّاد. فلما تناولها ووضعها بين راحتيه رأى عينها تتسع، فسألها:

- ما الذي ترينه يا سمكة؟

فقالت:

- أرى كل شيء وأعرف كل شيء.

تأمل عينها الواسعة الصفراء، وحدقتها السوداء التي لا تتحرك أبدًا، ثم قال لها:

- وهل ترينني؟

فأجابت:

- أرى رجلًا مسكينًا، يبحث عن قوت عياله، ويعمل عند أمير ظالم.

fb/mashro3pdf

سكت الصياد قليلًا ثم قال:

- قضيت عمري وأنا أعجب من أمركم أيها السمك، لماذا خلقكم الله بلا جفون؟ كيف يمكنكم أن تتحملوا رؤية كل شيء؟

فقالت له السمكة:

- الماء عين واحدة كبيرة، ونحن وهي سواء.

كان القارب يهتز اهتزازات خفيفة وسط البحيرة الواسعة، وكانت عين السمكة تتسع، وحدقتها تشتد حلكة وسط الصفار المتقد، حتى أصبح الصياد يرى صورته منعكسة عليها. ثم سألته:

- وكيف الحال عندكم على اليابسة؟

فأجابها:

- خلق الله لنا جفونًا، فأنا أغمض عيني عندما أنام فأرتاح قليلًا مما أراه من شظف العيش وظلم الأمير، أو عندما أموت فيعتقني الله من كليهما.

حلَّ الصمت شيئًا فشيئًا على البحيرة، ولم يصدق الصياد عينيه عندما رأى نفسه في عين السمكة وهو طفل في عمر أولاده، ثم وهو كهل مُلقى به في زاوية مظلمة. رأى أناسًا يشبهون آخرين يعرفهم، ورأى أحداثًا تشبه أخرى وقعت له. فاضطرب الصياد، وأخذ يتطلع حوله جزعًا نحو كومة السمك الصغيرة التي اصطادها في القارب، جميعها

fb/mashro3pdf

عيونها مفتوحة، تمامًا كحالها وهي لا تزال في الماء، جميعها تخلو وجوهها من أي تعبير، تمامًا كحالها وهي لا تزال في الماء. فنظر إلى السمكة التي بين يديه خائفًا، وهو لا يعرف ما إذا كانت تتطلع إليه أم لا، وسألها جزعًا:

- هل أنتم أحياء أم موتى؟ نائمون أم مستيقظون؟

فأجابت السمكة:

- نحن لا ننام ولا نستيقظ، لا نحيا ولا نموت، نحن والماء سواء.

لم يفهم الصياد ما قالت. وزادت بلبلته وهو يرى عين السمكة المتقدة وقد استحالت إلى عملة ذهبية، ويرى نفسه فيها وهو يمد إصبعه ليقتلعها. تردد قليلًا ثم فكر في عيون الأسماك الأخرى ففعل ما رآه، فابتلعته العين.

تقنية

يزداد توهج النور شيئًا فشيئًا، فتنفتح العينان ببطء، لتسقط الأشعة على شبكتيهما. تطوفان بخدر فيما حولهما، ولوهلة تختلط ذكرى الواقع بصورته الجديدة فيبدو كأنه مكان مألوف وغريب في آن، ثم يبدأ الاستيقاظ. يقول

fb/mashro3pdf

«فالتر بنيامين» إن كل استيقاظ حقيقي هو إعادة تشكيل للواقع. ويصف تقنية لهذا الاستيقاظ، وهي استعادة ما مضى، لا كحقائق مكتملة، وإنما كزمن يعاد تشكيله بمجرد ملامسته حاضر المستيقظ. اهتمام «بنيامين» ينصب في الأساس على النوم والاستيقاظ بوصفهما ظواهر جمعية، لذلك فإن الثورة، أو الصحوة، بهذا المعنى هي استيقاظ من سبات جماعي طويل. ولحظة الاستيقاظ البنيامين هي إذن اللحظة التي تتشكل فيها الذاكرة من جديد، والتي تستعيد فيها الجماعة وعيها بذاتها تدريجيًّا من خلال الفعل السياسي، فتصبح قادرة على إعادة صياغة الواقع، وتفسير الحلم الذي كانت تهوِّم فيه، لتخرج من الغياب الجمعي إلى الواقع الجديد. يكتب «بنيامين» في «مشروع البواكي»: «الاستيقاظ الآتي يقف كحصان الإغريق الخشبي في طروادة الأحلام». الاستيقاظ يتحيَّن إذن اللحظة المناسبة لكي ينقض على أرض النوم فيحررها. فالمستيقظون يريدون أن يتحرروا من قبضة النوم. ولا يتحقق لهم ذلك إلا عن طريق استدعاء الماضي غير المكتمل ليتجدد تحت عين لحظة الحاضر فيتغير كلاهما. فالتاريخ ليس تتابعًا من اللحظات المنتهية، وإنما انقطاعات متوالية. والاستيقاظ كما يفهمه «بنيامين» هو لحظة ولادة الذاكرة من جديد عند التقاطع المفاجئ

fb/mashro3pdf

للحاضر مع الماضي، تلك اللحظة التي تلمع كشرارة فيتوقف الواقع أن يكون مسرحًا يتكرر عليه التاريخ، ويصبح مادة حية ينفجر فيها باروده.

غيبوبة

إذا كانت الثورة هي الاستيقاظ بوصفه فعلًا استثنائيًا طال انتظاره بعد سبات جماعي عميق، ألا يُشكل النومُ إذن عودةً إلى الاستلاب؟ ومرادفًا للفشل؟ الفشل في إعادة تشكيل الواقع، الإخفاق في تغيير الظرف الحياتي، الهزيمة في معركة إعادة تعريف الذات؟ بيد أن إمعان النظر فيما يحدث خلال لحظة الدخول في النوم يخبرنا بشيءٍ مخالف، فهذه اللحظة لا تؤذن ببداية فشل، ولكنها فقط تُسلِّم به. إنها اللحظة التي يستسلم فيها النائم لنعاسه ولفشله في الاستمرار يقظًا. الفشل يأتي أولًا - سواء أكان فشل الذات في الاستمرار في السيطرة، أم هزيمة الجماعة في معركة التغيير - بعده تأتي لحظة النوم لتكون لحظة التسليم بالفشل، لا التسبب فيه، لحظة القبول بالهزيمة، لا إنتاجها. النوم الفردي هو فعل ذات تتخلى عن زمام السيطرة، والنوم الجمعي هو فعل جماعة أدركت أن المعركة قد حُسمت، وأن الإبقاء عليها

fb/mashro3pdf

هو ضرب من الانتحار. النوم هو إذن ما يحمي من الجنون أو الانتحار. الذات التي لا تنام هي ذات عُصابية مهووسة بنفسها، والجماعة التي لا تنام هي جماعة مُكابِرة لا تستطيع تغيير الواقع لأنها تعيش منفصلة عنه. ولكي تعاود الاتصال به، لكي تحتشد من جديد، لكي تستيقظ، لا مفر من أن تغفو قليلًا. فالنائم الذي يبيت على أمل لا شفاء منه سرعان ما يستيقظ في أرض الواقع مستلهمًا حلمًا جديدًا. والفشل في تغيير الواقع هو فشل يمكن التغلب عليه والخروج منه، أما الفشل في إدراك الفشل الأول وقبوله فهو فشل مركب، غيبوبة يصعب الإفاقة منها، وليس نومًا يمكن الاستيقاظ منه.

غاز

يرى «بنيامين» أن اليقظة والنوم لا يحدثان في عالمين منفصلين، وإنما هما ترتيبان مختلفان للواقع نفسه. الاستيقاظ هو إعادة تشكيل للواقع، والنوم هو انعكاس لأزمته. النوم واليقظة وفقًا لتصوره يعملان على الواقع نفسه بطرق مختلفة، فالنوم يهوِّم في الواقع، يشرد داخله، بينما تستوعب اليقظة الواقع نفسه من جديد لكي تغيره جذريًا. غير أن السؤال الذي يبزغ هنا هو: هل النوم عاجز حقًا

fb/mashro3pdf

عن تغيير الواقع؟ هل النوم معنيٌّ فقط بالاحتفاظ بالوضع الحالي؟ من الصعب تصور ذلك لأن النوم لا يملك القدرة على الاحتفاظ بأي شيء. النوم هو فَقْدٌ مستمر، ارتخاء لا يقوى على الإمساك بواقع، ناهيك عن الاحتفاظ بوضعه. النوم هو الحالة الغازية للواقع. لكن على الرغم من أن النوم لا يستطيع طرح تشكيل جديد جذري للواقع، فإنه يعادل قوى الجاذبية التي تشد الأخير فيبدو معلقًا في الهواء لوهلة، مما قد يجعل إمكانية تغييره واردة. النوم عبر شروده داخل الواقع يفكك أواصره، يجعله أكثر خفة. لذلك فالنوم ليس منهجًا أو تقنية من أجل إنتاج واقع، إذ إنه غير معني برسم ملامح واقع جديد، وإنما معني فقط بالعمل على الواقع من خلال خداع القوى الجاذبة له، ولو لوهلة.

غيبة

يروي ابن قشير في رسالته أن ذا النون المصري بعث رجلًا من أصحابه إلى أبي يزيد البسطامي، لينقل إليه صفته. فلما جاء الرجل إلى بسطام سأل عن دار أبي يزيد. فدخل عليه، فقال له أبو يزيد:

fb/mashro3pdf

- ماذا تريد؟

فقال الرجل:

- أريد أبا يزيد.

فقال أبو يزيد:

- من أبو يزيد؟ وأين أبو يزيد؟ أنا في طلب أبي يزيد.

أبو يزيد الحاضر بالحق والغائب عن الخلق لم يعد يعرف أين هو ولا من هو. وكيف له أن يعرف وهو غائب عن حواسه، وقد استولى ذكر الحق على قلبه؟ فبقدر غيبته عن الخلق يكون حضوره بالحق، فإن غاب بالكلِّية كان الحضور بالكلِّية. لذلك فالصحو عند الصوفية، على عكس الاستيقاظ البنيامين، لا يعني نهوضًا بأمر أو تغييرًا له، وإنما رجوعًا إلى عالم الأجساد الثقيلة ومغادرةً لعالم الأرواح الخفيفة. حطٌّ بعد طيران. ليل الصوفية هو نهار الناس، وغيبتها هي حضورهم. ففي الغيبة يحضر المرء بين يدي ربه غير غافل ولا ساهٍ، وفي الصحو يعود المرء إلى الخلق من حوله ويغفل عن الحق. غياب الناس في ليلهم هو طارئ يثبت قاعدة حضورهم في يومهم. أما الصوفيون فقاعدتهم التي يصبون إليها هي طارئ الناس، أي الغياب، وطارئهم الذي يفرون منه هو قاعدة الناس، أي الحضور. عندما رجع الرجل إلى ذي النون فأخبره بما شهده، بكى ذو النون وقال:

fb/mashro3pdf

- أخي أبو يزيد ذهب في الذاهبين إلى الله.
ويعلق ابن قشير قائلًا: «ومن الصوفيين من لا تمتد غيبته، ومنهم من تدوم غيبته».

آلة عجيبة

كنت أسير مع صديقي في أماكن تشبه الأماكن، نتكلم عن رابعة، ونهيم على وجوهنا. قال لي إن ما بُني على باطل هو باطل بالتأكيد. ثم انشقت الطريق أمامنا فجأة عن آلة غريبة، تتكون من فوَّهتين صغيرتين متقابلتين، الفوَّهة الأولى تنفث غبارًا في الهواء، والثانية تتلقى ذرات الغبار المنفوث بعد أن يقطع رحلة قصيرة في الهواء. وقفنا نتأمل الآلة العجيبة وذرات الغبار وهي تتألق في الهواء للحظات في مسارها بين الفوَّهتين المعدنيتين الباردتين. كانت الآلة في غاية الحذق، إذ لم تكن هناك ذرة واحدة تضيع في الطريق. كل ذرة تسير في مسار دقيق يقودها من إحدى الفوَّهتين إلى الفوَّهة الأخرى. ويتغير لونها في مسارها من الأصفر إلى الأحمر ثم إلى الذهبي، قبل أن تعود مرة أخرى إلى الأصفر. لكننا لم نفهم وظيفة

fb/mashro3pdf

الآلة، فكل ما كانت تفعله هو نقل الغبار من فوهة إلى أخرى. أم تُرى كانت لها وظيفة أخرى لم نفطن لها؟ ووقفنا وقد أخذتنا الدهشة مما نرى، ثم تملكنا تدريجيًا ما يشبه الحيرة.

العنقاء

يُظلم الليل فتبدأ الرحلة إلى العالم السفلي. كل ساعة من ساعات الليل هي حدٌّ يرغب الساهرون في تجاوزه. عالم بأكمله لا يعرف عنه النائمون شيئًا. هناك ساعة النشوة، وساعة السُّهد. ساعة السَّكرة، وساعة الفكرة. هناك ساعة الوقوف في الكمين، وساعة الطيران في شوارع المدينة الخالية. الساعة التي تنفتح فيها المُديات وتسيل فيها الدماء. والساعة التي يتمدد فيها ألم العالم إلى ما لانهاية. اليوم ينتهي فقط لمن ينام، أما من يسهر فهو يتشبث باليوم ولا يريده أن ينقضي. من يسهر يريد أن يبقى مشردًا، ولا يعود إلى بيته. فبيته أصبح الليل. وعندما ينبلج الصبح، يعرف الساهر أن الرحلة قد انقضت، وأن مهمته قد اكتملت، فاليوم لم ينتهِ بل بُعث من رماده، ويعود

fb/mashro3pdf

إلى بيته كمصاص دماء شاحب يبحث عن ملجأ من أشعة الشمس الحارقة. أما من ينام فيستيقظ على يوم جديد في انتظاره. يلتقطه كهدية ألقتها معجزة أمام بابه.

طول السهر

يذهب العمال والأفندية إلى أشغالهم في الصباح الباكر، فيلمحون ندامى السهر الليلي وهم لا يزالون جالسين في المقاهي والحانات، يتبادلون حجر النرد، ويقرعون كأس الشراب. خلال هذه النظرات تكون المدينة قد انقسمت إلى شطرين. مدينة العمل والتراكم، ومدينة السهر والهدر. مدينة المستقبل المأمول، ومدينة الحاضر المسفوح. من يسهر يستيقظ بعد أن ينتهي تقسيم الأرزاق، فلا يضيره فوات ما هو زاهد فيه، لتبدأ رحلته اليومية للبحث عما لا يستطيع أحد أن يمنحه إياه. فما يبحث عنه الساهر كل ليلة هو باب سري جديد، يقوده إلى المدينة السفلية، لتنطلق مغامرة جديدة. مدينة الساهر ليست نقيضًا لمدينة العامل، فهي لا ترغب في قلب آية الليل والنهار، بل تسعى إلى الانفلات من إيقاع الأخيرة المتسلط، وتبحث عن

fb/mashro3pdf

إيقاعات أخرى هاربة ومشوشة. هذه الإيقاعات ليست إيقاعات العمل والتراكم وإنما إيقاعات التبديد والتلف. مدينة الساهر ليست يوتوبيا بديلة يحقق فيها السهارى ما فشلوا في تحقيقه في مدينة العمل، وإنما محرقة كبيرة يتبارى الجميع في إتلاف ما تقع عليه أيديهم فيها: أفكارهم، رغباتهم، ضجرهم، دماء قلوبهم. ثم يجلسون قانعين وسط الأدخنة الكثيفة المتصاعدة.

لغة الألم

يأتي الألم من العالم، فينغرز كشوكة، ثم يتمدد. يخترق الطبقات العميقة بفضل نهايته المدبَّبة، ثم ينتشر فيها فلا يبقى جزء من الروح لم يتشبع به. الألم يعزل من يمسُّه، ويجعله يقضي ليلته دائرًا في فلكه إلى ما لانهاية. يظل المُسهد ينظم القصيدة تلو القصيدة، يتوه في هذيانات ليلية، يتضرع، يشكو، كل ذلك بحثًا عن تلك اللغة التي ستعينه على الحديث مع الألم، لكنه لا يجدها. إذ كيف يمكن للمُسهد أن يفارق ألمه من دون لغة جديدة؟ فالمُسهد يبحث عن لغة تكسر عزلة ألمه الخاص لكي

fb/mashro3pdf

تذيبه في آلام الآخرين. إلى أن يهدَّه التعب فيتوقف عن محاولة إشراك الآخرين فيه، وينام ألمَه، فيصبح فعل النوم فعلًا متعديًا لا لازمًا. عندها تنبسط قبضة المُسهد قليلًا فيتسرب الألم الذي كان يلتفُّ حوله ليعود كما كان، جزءًا من ألم العالم. النوم هو اللغة الوحيدة الممكنة لمشاركة الألم. لأننا عندما ننام نتوقف عن التشبث بألمنا ونُطلقه. نحن لا نتحرر منه لكي ننساه، ولا لكي نسكِّنه أو نتجاهله، وإنما لكي نصله بالألم خارجنا فيصبح ألمنا هو ألم العالم، كما بدأ.

في قلب الليل

تُخلص القلوب في الدعاء. تَظهر البشارة. يُجاب المستخير. تُحاك المؤامرات. تُتخذ القرارات. تُنسج الأحلام. تُدير الخمر الرؤوس. يهبط شيطان الشعر. تلمع الفكرة. تُنفذ أحكام الإعدام. يسطو اللصوص على البيوت. يُغمد القتلة مداهم في قلوب ضحاياهم. يحلُّ الهدوء. يلتئم الجرح. يبلُّ المريض. تتداخل الأجساد. تتشعب الرغبة وتأخذ في النضوج. يلمع الخطر. يفقد ابن المدينة صوابه.

fb/mashro3pdf

تظهر الأشباح. تعربد الوحوش في الشوارع. يقف الموت متربصًا. تُقدح ألف عين وعين. تُطلَق اللعنات. يعمل السحر. يتسلل المهربون. يهمز الشياطين. تتنزل الملائكة. تحلُّ السكينة. تلمع النجوم. تُستجاب الدعوات. تعود المدينة إلى نفسها.

ظَهر العالم

كنتُ أقف فوق سطح بيتنا القديم، في الساعة التي يولج الله فيها الليل في النهار، تحت ضوء آخذ في الاحمرار، أجمع الغسيل قطعة قطعة. أميل بجسدي فوق حافة السور القصير لألتقط قطع الملابس، ثم أعتدل وأكوِّم ما التقطته بجانبي. حتى حانت مني التفاتة فرأيت مستنقعًا يملأ الأرض البور التي تلي بيتنا. لم أكن قد لاحظت بعد أن المياه الجوفية قد زادت إلى هذا الحدِّ، حتى أصبح من الممكن رؤية أمواج طفيفة ترتسم فوق سطح المياه الراكدة عندما يمر الهواء. كنت قد صعدت إلى السطح وخلَّفت البيت في الأسفل ممتلئًا بأناس لا أعرفهم، يتحدثون جميعًا الإنجليزية بطلاقة، وقد

fb/mashro3pdf

جاءوا إلى البيت لكي يحتلوه إلى الأبد. كان معظمهم من الأشرار، باستثناء فتاة، عيناها بنيتان، كنت أود أن أنام معها. أخذتُ أتأمل موجات الماء الصغيرة، وعندما رفعت نظري رأيتُ لدهشتي الشديدة أن جميع البيوت التي تطل على الأرض البور قد سُدَّت نوافذها وشرفاتها، فأصبحت ناحيتها الخلفية المواجهة لي حوائط مصمتةً بالكامل من الطوب الأحمر. اختفت الفتحات التي كنت أرى عبرها شذرات من حياة الآخرين وأنا صغير. أراهم وهم يستندون على أفاريز النوافذ ويدخنون، أو وهم يجمعون الغسيل من الشرفات، أو وهم ينفضون المراتب. تلك الفتحات نفسها التي كان الحظ يسعدني أحيانًا عندما كبرت، فألمح من خلالها طيفًا من عُري غارق في ذاته. تبخر كل ذلك الآن. ولوهلة ظننت، وأنا أقف وحيدًا أشاهد الحوائط المصمتة، أني أرى ظهر العالم. هذا المشهد أشاع داخلي حميمية غريبة، إذ لم تكن شعورًا داخليًا، وإنما حالة خارجية. لم أكن أنا بالضبط هذا الشخص غير محدد العمر، الواقف على حافة منزل العائلة المتهالك، بكل ما يدور في خلده من أحلام وهواجس ورغبات، وإنما كنتُ هذا التشكيل الذي يصنعه المشهد بأكمله، هذه الحميمية مع خرائب عالم قد أدار ظهره.

fb/mashro3pdf

نهار واحد طويل

الليل يتبع النهار كظله، والنهار يجري هربًا منه. يحيطه بأسوار حتى يأمن شره. يطرده من عالمه وينفيه في عالم آخر. يطلق عليه أسماء وأوصافًا، ويجعل منه شيطانًا. فيصبح الليل مخيفًا، ومستبعدًا دومًا، كأنه بحر الظلمات الذي يجب عبوره من أجل الوصول إلى بر الأمان المنير. والنهار في ذلك كله لا يريد أن يعرف شيئًا عن الليل وظلماته التي خرج منها كل شيء، يريد فقط أن يطويها بسرعة لكي يبدأ من جديد، متناسيًا أنه من دون الظلام ما كان له أن يبدأ من جديد، من دون الليل الذي يطمس الملامح ما كان للنهار أن يدرك اختلافه عن سابقه. النهار ينسى أنه لو لم يكن هناك نوم لبات العالم نهارًا أبديًّا لا نهاية له. نهار واحد طويل لا يخالطه إيقاع. ولا يبزغ هذا الإيقاع سوى عندما يعترض النوم مسار نهار العالم الأبدي. فالنوم بوصفه انقطاعًا لا كنه له سوى أنه إيقاع، مثل المشي والتنفس والنبض، حركة متكررة تخلق نهايات وبدايات جديدة. هو نفَسٌ يضع شهيقُه حدًّا ليوم، ويخلق زفيرُه بدايةً لآخر.

fb/mashro3pdf

مبني للمجهول

يهبط الليل فتدور الأرض. يذهبُ عالم ويلوح آخر. في هذا العالم الآخر يطمس الظلام الملامح، ويشذب الحواف، ويذيب الحدود، ليصلح ما أفسدته الأنوار. في النهار تسري قوة العمل، تجهد وتكد، وتملأ معاولها الدنيا صخبًا. أما في الليل فتعمل قوة أخرى هادئة، تبسط راحتها على الأشياء التي صنعتها قوة النهار لتحررها من مصائرها، وتعيدها إلى نفسها. في رابعة النهار هناك عامل يطرق الحديد، أو نجار يعمل على طاولة، أما في عتمة الليل فهناك ثمرة تونع أو فكرة تختمر. ما يصنعه الليل يحدث تحت جنح الظلام، ويبقى مبنيًّا للمجهول، لا يمكن نسبته لأحد، على عكس ما يصنعه النهار المبني دائمًا للمعلوم. ومثلما ينمو الجنين في ظلام الرحم، وتونع الثمرة في جوف الزهرة، مثلما تكبر الدودة في عتمة شرنقتها، وتختمر الفكرة في غيوم السكرة، ينسج الليلُ رحِمه ليستُرَ من ينامون في كنفه. يطهرهم بعزلتهم من جبروت أنوارهم، ويعدُّهم ليدخلوا يومًا جديدًا. حتى يتنفس الصبح فتدور الأرض. ويذهب عالم ليحل محله آخر.

fb/mashro3pdf

هل يسبق النومُ اليقظةَ أم يليها؟ هل تولد اليقظةُ من النوم أم تموت فيه؟ هل النوم هو شرط اليقظة أم العكس؟ سؤال الأصل يبحث عن مصدر ينسب إليه ما يليه، يبحث عن نقطة الصفر التي بدأ منها كل شيء. لكن ماذا لو لم يكن هناك نقطة صفر، ولو لم يكن النوم واليقظة حالتين متعاقبتين على الوعي، نشأ أحدهما عن الآخر، وإنما تجربتان متداخلتان للجسد؟ تجربة يتشكل فيها الجسد باعتباره موضوعًا وسط موضوعات أخرى، وداخله جوَّانية تسكنها ذات، هي بدورها منفصلة عن مواضيعها. جسد متمترس يحافظ على موقعه في العالم كجزء منه. وتجربة أخرى يكون فيها الجسد ليس جزءًا من العالم، وإنما هو العالم مجسَّدًا، أي هو واقع العالم في هذه اللحظة. جسد لا يخفي داخله ذات، وإنما هو انفتاح مستمر، تذوب خلاله الذات مع موضوعها. النوم واليقظة بهذا المعنى لا يجمعهما تعاقب، ولا يحدثان منفصلان، وإنما يضجُّ بهما جسد واحد. هذا الجسد هو تجارب مستمرة ومتداخلة لا تصل إلى نهاية طالما بقي الجسد حيًّا، تجارب لا يكف عن الدخول فيها، ولا يعرف إلى أين تؤدي به في هذا العالم.

fb/mashro3pdf

سابع يقظة

قد تكون سابع سماء هي سدرة المنتهى، وقد تكون سابع أرض هي قاع الجحيم، وسابع نومة هي على الأرجح باطن الحلم. فماذا يمكن أن تكون إذن سابع يقظة؟ لا أحد يعرف بالضبط، إذ لم يسبق أن وصل أحد إلى هناك. فاليقظة – على كل تعقيدها – لا تعرف الحركة أو التدرج، وإنما هي أرض الواقع الصلبة. حتى الميثولوجيا ثبتتها، ولم تمنحها اختلافًا يجعل لها قمة وقاعًا، أو سطحًا وباطنًا. لماذا حُرمت اليقظة من تسلسل في درجاتها؟ ربما لأن اليقظة هي بالضبط مقياس أي تغيير. اليقظة المُتيقظة تقيس الأشياء حولها وتُنزل منازلها، تقدر درجات القرب والبعد. هي المِسطرة الثابتة التي تقيس ما حولها، وتجعل الواقع متماسكًا، ويجب بالتالي ألَّا يشوب ثباتها أي قدر من التغير أو الاختلاف، حتى لا يفسد القياس. لكن ماذا لو أن اليقظة أرادت يومًا تجويد المهمة التي أُسندت إليها، فأصبحت لا ترغب في قياس التغيير فقط، وإنما في الإمساك بلحظة حدوثه أيضًا؟ ماذا يحدث إذا رغبت اليقظة في التدرج في شدتها ومضاعفتها حتى تصبح

fb/mashro3pdf

محض تركيز ثاقب يثبِّت لحظة التغيير من أجل التحكم به؟ عندها ستعمل بالتأكيد بكفاءة متزايدة على إحصاء الواقع وتقسيمه، ثم تشتدُّ فترى في الأحوال التي قسَّمتها مجالًا لقسمة أخرى، فيتحول الواقع بين يديها إلى سلاسل تفاضلية لا تنتهي، وستظل هكذا حتى تظن أنها اقتربت من النقطة المجردة التي يحدث عندها التغيير. لكنها وبالرغم من كل ذلك تفشل في الإمساك بتلك النقطة، وتعجز مثلًا عن معرفة اللحظة التي بدأت الثورة فيها، أو اللحظة التي هُزمت فيها. فتسعى عبثًا إلى أخذ مزيد من اللقطات والنقاط البينية، وتركيب التغيير كمنحنى من العلاقات والنقاط التفاضلية الأكثر دقة. عندها تنزلق اليقظة إلى ما رغبت في تجنبه بالضبط، أي تصبح هذيانًا. اليقظة في امتدادها المحموم تتغير أحوالها لكنها تفشل في الإمساك بهذا التغيير، تخترقها خطوطه لكن نقاطه التي تحصيها تتبعثر. ولا يعود الواقع ثابتًا صلبًا كما تريده اليقظة، وإنما يظل يفور وينزلق من بين أصابعها تدريجيًّا حتى يصبح شفافًا، أو تصبح هي هذيانًا صافيًا. أي أنها تصل إذا امتدت على استقامتها، وعبر أشد الطرق وعورة، إلى ما استبعدته منذ البداية من الواقع.

fb/mashro3pdf

سرتُ في طرق متشابكة، ورأيت أن الناس قد غيَّرت طريقتها، فهم لا ينخرطون في تشكيل مظاهرات كبيرة، ولكنهم يتظاهرون في جماعات صغيرة عندما تُغلق إشارات المرور. كل مظاهرة لا يزيد قوامها على خمسة أفراد. يرددون شعاراتهم ويحملون لافتاتهم في تقاطع الطريق أمام الإشارة الحمراء، ثم يفرون قبل أن تأتي الشرطة. كانت الطرق التي أخوض فيها تزداد تعقيدًا وتشابكًا، وفكرتُ وقدماي تغوران في رمال طريق لا أعرفها أن الأفراد يرغبون في تغيير نظام مبارك، لكن الجماعة التي تتكون من الأفراد أنفسهم تريد بقاء نظام مبارك. أخذت أتأمل في هذا الأمر، حتى عدتُ إلى المنزل، ففتح لي أبي الباب، وقال لي إن موقع فيسبوك يحتكر الصور. لم يكن هذا المنزل يشبه أي منزل جمعني بأبي طيلة حياتي، وبالرغم من ذلك كان منزلًا يشع بالألفة. وكان له سلم صغير تزينه أصص الزرع. لم أفهم جملة أبي الذي أعرف حبه للتكنولوجيا، فسألته وأنا أعبر الباب داخلًا إلى المنزل عما يعنيه بذلك. فقال إنه لاحظ أن الجميع لا يستخدمون سوى الفيسبوك لرفع الصور، بالرغم من أن مواقع الصور الأخرى لا تقل عنه جودةً. وفهمتُ من

fb/mashro3pdf

ذلك أنه شاهد الصور التي وضعتها على موقع الفيسبوك من رحلتي الأخيرة، موقع الفيسبوك الذي كان هو من أقنعني بالاشتراك فيه بعد أن سبقني إليه، فشعرتُ بالسعادة الغامرة والامتنان لهذه الإشارة الرهيفة القادمة من عالم آخر. أبي كان ممتلئًا قليلًا، ويرتدي جلبابًا منزليًّا. وجهه كان منتفخًا جراء الدواء المحتوي على مادة الكورتيزون، والذي كان مجبرًا على تناوله في سنواته الأخيرة، بعد أن اهترأت رئتاه بسبب التدخين. رأيته حليق الذقن، وفي مزاج معتدل. كانت تلك هي المرة الأولى التي أراه فيها وجهًا لوجه منذ رحيله قبل عام، وكانت هذه هي طريقتنا المعتادة في التواصل، فكلانا ينحدر من سلالة القطط، لا نستطيع السير في خط مستقيم، ولا نستطيع قول أي شيء مباشرة، بل نسلك برضا تام طريقًا متعرجة طويلة لقول شيء بسيط.

نهر جوفي

هناك نوم آخر يغفو في قلب النوم. نوم يتجاوز اختلاف الليل والنهار، ودورات العمل والراحة. نوم لا نحتاج

fb/mashro3pdf

حتى إلى إغماض عيوننا لكي نذهب إليه، أو إلى التخلي عن وعينا لكي ندخل فيه. هذا النوم ليس حالة كالنوم الذي يدور في فلك اليقظة، وإنما هو تيار رفيع من الشرود يسري في الواقع. انسحاب يجري في قلب العالم. نهر جوفي متدفق من الكف والإمساك. هذا النوم ليس نفيًا للواقع أو رفضًا له، بل هو جزء لا يتجزأ منه، هو روحه الخالية التي لا يكتمل إلا بها. ما الذي يحدث إذن عندما ينفتح تيار الشرود على دورات الإنتاج التي يعجُّ بها الواقع؟ ما الذي سينتجه هذا التيار الذي هو عكس الإنتاج؟ ربما لن ينتج عن ذلك سوى أشياء سحرية، مثل حلم أو ثورة. عندما يسري تيارُ الشرود في دورات إنتاج الواقع يقوم بتفكيكها من خلال رفضه المشاركة فيها، فيعيد الواقع إلى حالة التطاير، فيضٌ غزير من الكلمات والرغبات والأشياء والسوائل. الواقع بهذا المعنى يصبح إنتاجًا محضًا لا يعرف المنتجات، إنتاجًا لا يكاد يستقر، ولا يمكنه أن يستقر إلا عندما يختفي تيار الشرود، فيعود النوم مجرد انعكاسٍ لليقظة، تتأمل فيه ذاتها بنرجسية، قبل أن تستأنف دورة الإنتاج.

fb/mashro3pdf

يلبي الشرود نداءً مجهول المصدر. يبقى النداء المجهول كامنًا، يتحيَّن اللحظة المناسبة حتى تلوح، فيتسرب من بين ثقوب شبكة الإدراك. يلتقط المرء النداء فتُطيح به حركةٌ عرضية تسير على غير هدى. تجعله يتـــلل إلى العالم ويذوب فيه، ويصبح مشردًا بين سياقاته. لكن ماذا يقول له هذا النداء؟ إنه لا يكاد يقول شيئًا واضحًا، وهذا ما يمنحه طاقة النداء. فنداء الشرود هو خلل عارض يثير الانتباه. يسير خلفه المرء مترددًا وهو يسعى لتوضيح الرؤية من خلال إحكام التعبير، فينزلق أكثر فأكثر إلى ما لا يمكن التعبير عنه، ويجد نفسه يفكر في شيء آخر كلما أراد أن يفكر في شيء ما، ويظل هكذا حتى لا يكاد يعرف أين هو، ولا كيف جاء إلى هنا. نداء الشرود هو من جنس الشرود، لحظة تنفلت فتكرُّ خلفها خيطًا طويلًا من الانفلاتات. غير أن الانفلات من اللحظة الحاضرة لا يعني الخروج منها، وإنما يعني تعقيدها، فتصبح لحظة موجودة وغائبة في آن. فالشارد موجود في مكانه، وفي الوقت نفسه منتشر في محيطه غير الذاتي. لماذا لا يبقى المرء إذن شاردًا إلى الأبد؟ لماذا لا يستمر هذا الهذيان حتى ينشق القمر؟ ربما لأن الشرود أكثر خفة وهشاشة من أن يبقى، فهو طارئ

fb/mashro3pdf

ومنفلت في عالم مجبول على الثبات. وسرعان ما يتبخر في الهواء عندما يظهر نداء واضح المصدر، نداء العمل، أو نداء الواجب، أو نداء الدولة، فتلك النداءات أكثر سطوة وقدرة على جذب الانتباه من النداءات مجهولة المصدر.

فكُّ ارتباط

بعد دورات التشتت والتمزق، والتعرض المكثف لنصال الواقع ونداءاته، يعود المرء إلى نفسه، آملًا في لمِّ شمل ما تفرق. «عوليس» عاد أيضًا إلى بيته بعد أعوام من التشرد في الجزر القديمة، ليجد «بينلوبي» في انتظاره. وبعد الضرب في الأصقاع استقر في كنف البيت، ليقضي ما تبقى له من العمر داخله. لكن نفس المرء التي يعود إليها ليست هي «بينلوبي» العاكفة على نولها، ولا يوجد بها ما يمكن لم شمله أو إرجاعه إلى حالته الأصلية. ما يعود إليه المرء ليس طورًا أو مكانًا ولا حتى ذاتًا، ما يعود إليه المرء هو معاودة فك الارتباط بينه وبين الواقع. أي معاودة الانعتاق من نداءات الواقع، والشرود في صداها الذي تخلِّفه في الذاكرة، مختلطًا بكل ما فيها. فمن دون فك الارتباط لا يمكن للمرء أن يعاود الارتباط بالواقع

fb/mashro3pdf

مرة أخرى. العودة إذن لا تحدث مرة واحدة بل هي تكرار، لكنها ليست تكرارًا من أجل استعادة أصل ثابت، وإنما تكرار من أجل جعل الخروج ممكنًا. لذلك فما يعود إليه المرء أو ما يعاوده ويجدِّده دومًا هو إمكانية الخروج. ونفس المرء التي يعود إليها ليست سوى إيقاع الذهاب والعودة، إيقاع الوصل والقطع، إيقاع الارتباط وفكه. وإذا كان الشرود هو تسلل باتجاه العالم، فإن تلك العودة إلى النفس، على خلاف عودة «عوليس»، ليست نقيضًا له، وإنما هي شرود عكسي، شرود إلى الداخل. وعلى الأرجح لا يوجد شرود داخلي وآخر خارجي، وإنما الشرود حركة واحدة غير ثابتة أو مستقرة، تربط وتفك، ولا تكاد تصل إلى مداها، بل تسير طورًا في هذا الاتجاه وطورًا في ذلك الاتجاه، خالطة العالم بالذات، حتى يصعب التمييز بينهما.

أرق صباحي

يتحدث «راينر ماريا ريلكه» عما يسميه «الفضاء الداخلي للعالم». ويصفه بأنه بيت العالم الذي «تطير فيه الطيور ساكنةً عبرنا، وتنمو داخلنا فيه الأشجار، ويتحول كل

fb/mashro3pdf

شيء فيه إلى شيء آخر». هذه الجوَّانية التي يشف عنها العالم الخارجي ليست فضاء طُهرانيًا أو متساميًا، يتطلب تطهير الوعي من كل شيء من أجل الوصول إليه، وإنما على العكس، فهو يشترط امتلاء الوعي بكل الأشياء بعد تخليصها من قيودها، والسماح لها بالتحول. في هذا الفضاء لا يصبح الوعي مرآة تنعكس عليها تمثلات العالم الخارجي، وإنما يصبح أكثر شفافية لأنه يتصل مباشرة بقلب العالم الفائر بالتحولات. الشرود هو جوَّانية مشابهة لفضاء «ريلكه» تشكلت للتو، قلب صغير بحجم العالم. ومن يشرد لم يعد نفسه، وإنما هو من تسرب خارج نفسه، من وجد نفسه خارج نفسه. من يشرد يصبح مطرودًا من النهار، ومُلقى به في عرض تيار متدفق من التحولات. فالشرود هو أرق صباحي، لا يستطيع صاحبه أن ينخرط في اليوم، كصاحب الأرق الليلي الذي لا يستطيع أن ينخرط في النوم. ولأن الجوَّانية فضاءٌ مجروح، شديد الهشاشة، دائمًا وأبدًا في طور التشكل، ولأنها فضاء ضعيف سهل الانهيار، فإن الأرق الصباحي سرعان ما يتبخر، وسرعان ما تتمزق الجوَّانية تحت وطأة مطالب النهار، ليعود اليوم. على عكس الأرق الليلي الطويل، بطول الليالي التي يسكنها.

fb/mashro3pdf

عندما دخلنا رأينا أربعة أسرَّة صغيرة مُرتَّبة وموضوعة بعرض الغرفة، فأدركنا أن أحدنا سينام على الأرض. كانت أغطية الأسرَّة البرتقالية مشدودة بإحكام فوق المراتب، والوسائد البيضاء منفوشة وناصعة. وبالرغم من أن الوقت كان متأخرًا، بدت الغرفة كأن أحدهم قد نظفها للتو. تناقشنا في الأمر، وتوصلنا إلى حل سريع، فقد عرضتُ أن أنام على الأرض، لكن الآخرين أصروا على أن أحصل على سرير، وأن ينام واحد منهم على الأرض. لم أكن قد رأيت الرجال الأربعة سوى صباح هذا اليوم، فقد أخبرتني صديقتي أن مجموعة من أصدقائها ستأتي بالسيارة إلى مدينتها البعيدة، وأن بإمكاني مصاحبتهم. التقيت بهم صباحًا في أحد المقاهي، ثم انطلقنا. وسارت الرحلة على ما يرام حتى تعطلت السيارة على الطريق، في هذه البلدة التي لا نعرفها. اختار كل منا سريره، وأفسحنا مساحة لخامسنا الذي سينام على الأرض. وكنا منهكين فتهاوينا على الأسرَّة. هدأت الغرفة وعبقت برائحة خفيفة حلَّت محل رائحة المنظفات القوية التي كانت تنبعث منها حين دخلناها، رائحة عرق يفوح من أجسامنا بعد أن خلعنا معاطفنا الثقيلة، مختلطًا برائحة السيارة وبخار

fb/mashro3pdf

بنزينها. ثم تناهى إلى سمعي صوت حركة أمعاء أحدهم. وانقبض قلبي قليلًا، وأخذت أفكر في صديقتي التي تنام الآن في المدينة الأخرى، وأفكر في رفاق رحلتي الذين أسمع صوت أمعائهم وتنفسهم الآن. وغالبت شعورًا بالضيق بسبب عدم تمكني من رؤيتها، وقضائي الليلة مع أصدقائها الذين لا أعرفهم، في تلك البلدة التي لا أعرفها. لم يكونوا من الذين يتحدثون كثيرًا، وإن تحدثوا غرقوا في تفاصيل أحداث تخص دوائر أصدقائهم، ويصعب عليَّ متابعتها. ومع كل حركة من أحدهم على فراشه كنت أنتبه، ثم أحاول أن أصرف انتباهي لكي أنام. ظل ذهني يسير في مسارات متشعبة وأنا أشعر بشيء يجثم على صدري في هذه الغرفة، وأقدر الوقت الذي سنحتاجه غدًا لنطوي المسافة المتبقية سريعًا، حتى انتبهت على حركة أطياف تدور حولي، فنظرت لأرى لدهشتي الأسرَّة خالية، وقد نهض الجميع وغرقت الغرفة في نور الصباح. ابتسم في وجهي أحدهم ملقيًا إليَّ بتحية الصباح. ونهضت من فراشي متثاقلًا، وتطلعت حولي إلى الأسرَّة غير المُرتَّبة، وإلى الملاءات المجعدة وقطع ثيابنا المتناثرة فوقها كيفما اتفق. كانت هذه غرفة أخرى غير الغرفة التي دخلناها ليلًا. غرفة الليل ملأها حرج مكتوم، أما هذه التي لا تزال عليها آثار نومنا فسكنتها ألفة مفاجئة. تناقشنا في أمر الإفطار،

fb/mashro3pdf

وفي سورة من حماسة اقترح أحدنا أن نأخذ جولة في هذه البلدة التي دخلناها في الظلام، فور أن ننتهي من إصلاح السيارة، فوافقنا جميعًا مسرورين.

من هو النائم؟

عضو بُتر من جماعة؟ ذات وحيدة؟ جماعة صغيرة تستريح؟ المستيقظ لا يتوقف عن الانتماء إلى جسد اجتماعي ما، حتى إذا فصل بينه وبين باقي أعضاء الجسد غياب مكاني أو زماني. المسافر على سبيل المثال يظل جزءًا من الجماعة التي خلفها وراءه مهما طال سفره. كذلك النائم لا يتوقف عن الانتماء إلى جسد اجتماعي بالرغم من غيابه في نومه. لكن الفارق بين المستيقظ والنائم، هو أن المستيقظ يميل إلى الحفاظ على جسده الاجتماعي وتأكيد حدوده، أما النائم فينحو إلى تحوير ذلك الجسد وتعكير نقائه بفتحه على جسد آخر. الغائب ليس ثقبًا في جسد اجتماعي منظم وإنما خط، وعلى طول هذا الخط يتحرك ذلك الجسد ويندفع نحو الهذيان عبر ارتباطه بأجساد غريبة. أحلام النائم ليست سوى

fb/mashro3pdf

لحظة الاندفاع تلك التي تفتح جسدًا على جسد آخر، فما هي إلا هذيانات شخصية واجتماعية وسياسية في آن، ما هي إلا اصطدام رغبات متعددة بعضها ببعض، تيارات متضاربة تسير في جميع الاتجاهات. كل نائم هو جسد اجتماعي يهذي. مدينة قد انفكت من عقالها، واختلطت مواقع أحيائها وشوارعها، فأصبحت لا تصلح للسكنى وإنما للارتحال الدائم.

من هو النائم؟

عضو بُتر من جماعة؟ ذات وحيدة؟ جماعة صغيرة تستريح؟ إذا كان النوم هو التجلي الأنصع للفعل الفردي، كونه فعلًا لا يقبل المشاركة في تحقيقه، فإن جوهر ذلك الفعل، والذي لا يكتمل بدونه، هو تخلي الذات عن نفسها. أي أن الذات في فعلها العضوي الأكثر التصاقًا بإرادتها لا تتقوقع حول نفسها وإنما تتخلى طوعًا عن إرادتها، كأنها تقترب من تحققها عبر الخروج عن نفسها. ربما لذلك السبب يحتاج المرء إلى النوم لكي يدرك أنه نفسه ما هو سوى جماعة صغيرة، لا تشكل

fb/mashro3pdf

ذاته فيها سوى جزء منها. فمن وضعنا هنا داخل حال النوم ندرك بؤس السؤال عما إذا كان النائم فردًا معزولًا أم عضوًا في جماعة، فهو سؤال يخص يقظة تنظر إلى العالم عبر كهف الذات. أما ما يطرحه حال النوم فهو أنه ليس هناك فرد في مواجهة جماعة، ولا جماعة تتكون من أفراد، وإنما هناك فقط جماعات. جماعات كبيرة وجماعات صغيرة. جماعات بشرية تنظمها السُّلطة، وجماعات أخرى يقتسمها البشر مع الموتى والأشجار. عبر فعل النوم الذي يُخرج الذات عن نفسها يصبح النائم جماعة صغيرة مفتوحة دائمًا، لا مركز لها تدور حوله. الفرد بهذا المعنى ليس نقطة رياضية مفترضة، بل جماعة وحيدة في حالة فعل، حتى وإن لم ينضوِ يومًا تحت لواء أي جماعة كبيرة.

من هو النائم؟

عضو بُتر من جماعة؟ ذات وحيدة؟ جماعة صغيرة تستريح؟ في قلب كل جماعة جرح لا يندمل، يتجدد ألمه مع كل جزء ينسلخ عنها متواريًا. غير أن الجماعة تقرر دائمًا أن

fb/mashro3pdf

تنحاز إلى جزئها المرئي، إلى الحي الذي هو أبقى من الميت، وتراهن على الآتي، وعلى اندمال الجرح بمرور الوقت. الجماعة ترى نفسها تاريخًا من التجدد والتطور، وتغض الطرف عن كونها أيضًا تاريخًا موازيًا من الفقد والانسلاخ. أما النوم فلا يغض الطرف، وإنما ينحاز مباشرة إلى ذلك التاريخ الموازي. وينجذب نحو ما لم يعد مرئيًا، مدفوعًا بكارثة الفقد. لذلك فعين النائم مصوبة دائمًا نحو من رحلوا، لا يرى في الجماعة التي ينتمي إليها سوى شقها الغائب، سوى تصدعاتها وانكساراتها التي تزداد يومًا بعد يوم. الجماعة التي ينتمي إليها النائم هي جماعة مفقودة، تسير نحو الجرح المفتوح. ما يجمعهم لا يقوم على التماسك والتطلع إلى الأمام، وإنما على الضعف والتطلع إلى الوراء. النوم لا يريد تسكين ذلك الجرح الثاوي في قلب كل جماعة، وإنما يريد فقط أن يقترب منه.

ننصبُ فخًّا

جلستُ أنا وصديقتي في غرفة العيادة أمام الطبيب الذي كان يشرح لنا العملية ويؤكد لنا كم هي بسيطة، مدللًا

fb/mashro3pdf

على ذلك بسرد حالات نجحت فيها العملية نجاحًا تامًّا، بالرغم من أنها كانت أشد تعقيدًا من حالتنا. حرصنا أنا وصديقتي على إظهار علامات الاقتناع والإعجاب بكلام الطبيب على وجوهنا. حتى حانت اللحظة المناسبة، فنحينا قناع الثعلب جانبًا، وقلنا للطبيب إننا نعرف أنه هو من قام بعملية «نادين» التي أفضت إلى موتها، وأن ما حدث فيها لم يكن مجرد خطأ محتمل، وإنما جريمة قتل. وقلنا له إننا لن نتوقف عن المطالبة بحقها، لكننا نعرف أيضًا أنه لا يوجد قاضٍ نزيه يحكم بيننا بالعدل، لذلك فإننا هنا اليوم لعرض حل وسط عليه، وهو التبرع بنصف ثروته لجمعية خيرية في مقابل تركه لحال سبيله. وجم الطبيب وهو يستمع إلينا، ثم تمالك نفسه سريعًا وقال إنه بحاجة إلى وقت لكي يفكر في هذا العرض، وإنه سيتصل بنا لكي يعلمنا رده النهائي. خرجنا من عند الطبيب بروح معنوية مرتفعة، خصوصًا بعدما رأينا لون وجهه يتغير عندما عرف أنه وقع في فخ. لكن الأيام التالية حملت لنا في طياتها الكثير من المتاعب، فقد تناولت إشاعات غير دقيقة نبأ اجتماعنا بالطبيب، واتهمنا البعض بالخيانة وبيع القضية بسبب العرض الذي قدمناه له. في كل مكان كنا نذهب فيه كانت تواجهنا نظرات عدائية، ويُلقى إلى مسامعنا بعبارات مسيئة. كانت أيامًا صعبة ومحملة بالكثير

fb/mashro3pdf

من المآسي والإحباطات. تحملنا ما نلقاه بصبر منتظرين معرفة رد الطبيب النهائي، حتى يكون بين أيدينا ما نعرضه على الآخرين. لكن الطبيب لم يتصل.

صلة غرابة

في أخوية النوم يتساوى جميع النائمين. تذوب خبراتهم وذواتهم وذكرياتهم وتصبح كلها مشاعًا بينهم، حتى غيابهم غير القابل للمشاركة يصبح مشتركًا. فالنوم يقترح نوعًا آخر من الجماعية، نوع لا يقوم على تعريف الجماعة بأنها حاصل حضور أفرادها، وإنما على تعريفها بأنها غياب مشترك، أي صلة قرابة بين كل من ذهب بعيدًا. أو إن جاز التعبير صلة غرابة. أخوية النوم لا تقتصر على النائمين، فهي لا تقوى على الاستبعاد، بل ينضم إليها كل من يعبر برزخ النوم. الأشياء والأماكن والموتى عبرت جميعها أيضًا ذلك البرزخ في طريقها للذهاب بعيدًا. ومعها كل الساعات المارة، والآلام الآتية. حشود غفيرة تسير على طريق الهرب. لكن إلى أين؟ لا طوبى لهذه الأخوية، وإنما كل ما تبتغيه هو أن تمتد وتنتشر بلا هدف، كسحابة غبار

fb/mashro3pdf

تسير فوق رؤوس العابرين، تضم المستبعدين لا لكي يحضروا وإنما لكي يوغلوا في بُعدهم.

غياب مشترك

لا توجد «فينومينولوجيا» للنوم، كتب «جان لوك نانسي» يومًا في كتابه «السقوط في النوم». وذلك لأن النوم لا يُظهر سوى اختفائه وغيابه. النوم ليس ظاهرة حاضرة يمكن وصفها وتحليلها، بل غياب لا يستجيب لأي نوع من التحليل. في هذا الغياب «تعود» الذات إلى نفسها، والوصول إليه يتطلب «سقوط» الذات. «السقوط» في النوم، الذي هو شرط النوم كما يرى «نانسي»، يجعل الذات تفقد سيطرتها، وتهوي عميقًا في قرارة نفسها. وكلما أوغلت في سقوطها وغرقها، اقتربت أكثر من نفسها. تظلُّ الذات في رحلة سقوطها، ولا تكتمل عودتها إلى نفسها سوى عندما تتوقف عن إدراك أي فارق يميزها عما عداها. هنا تكون الذات قد وصلت إلى أرض لا تمايز فيها، كل ما فيها مختلط على اختلافه، فيها تجد الذات ذاتيتها في كل ما هو خارجها على نحو مساوٍ لما تجده

fb/mashro3pdf

من ذاتية في كل ما هو داخلها. هنا بالضبط، عندما تكون الذات قد تخلت عن كل ما يميزها عن غيرها، وأزالت الفاصل بين الخارج والداخل، تكون قد عادت إلى نفسها. وهنا بالضبط ينهض الموتى، ففي ظلام اللاتمايز واللاذاتية التي يصفها «نانسي»، وبعيدًا عن ضوء التمثيل الباهر، يمكن لموتانا أن يظهروا، بعد أن أصبح يجمعنا بهم غياب مشترك. فقط النائمون بإمكانهم أن يكونوا في حضرة الموتى، لأنهم عادوا إلى أنفسهم، أي عادوا إلى تلك الكتلة غير المتمايزة التي تسبق تكوين الذات. في الغياب الذي يُدعى «النوم» يلتقي من فقد ذاته بمن عاد إلى ذاته.

الحديقة المعلقة

من كان يتوقع أن المدينة التي تبزغ خلال النوم هي حديقة نقف فيها، نحن النيام، كالأشجار بين الأرض والسماء؟ بلاط المنازل يتشقق لتخرج منه سيقان خضراء، والنوافذ تتحطم لتخرج منها الأغصان. الأسفلت يغور ليجري فوقه الماء، المباني تتضعضع لتصبح أعشاشًا وأوكارًا. الحوائط تتزحزح، والشوارع تتغير. المدينة نفسها، وقد خرجت

fb/mashro3pdf

عن طوع أصحابها، ودخلت زمنًا آخر، واستسلمت لقوة أخرى. وعلى خلاف مدينة أهل الظاهر المتسارعة، يحدث كل شيء هنا ببطء. في حديقة النوم المعلقة تسقط أشعة الشمس على الأوراق ببطء، تخترق الجذور التربة ببطء، تتفتح الزهور ببطء. تحولات مستمرة تخفى على العين المجردة من شدة بطئها. مدينة النوم خاوية من البشر وتغصُّ بالحياة في آنٍ. فالبشر الكثيرون الذين يستسلمون كل ليلة صامتين للنوم نفسه، حتى ولو فصلت بينهم آلاف الأميال، يصبحون حديقة تسكنها النباتات والحشرات والطيور، وتسكنها أيضًا أرواح الموتى. فهي تفر من صخب مدن أهل الظاهر وتنجذب لسكينة الحديقة. هناك يجد الموت مكانه وسط التحولات اللامرئية التي تضج بها حديقة النوم. فيتجول الموتى بحرية، يمرون عبر الزهور، يتخللون أغصان الأشجار، يعبرون جذوعها. نسمع همسهم ويسمعون همسنا، نلمسهم ويلمسوننا، نختلط بهم ويختلطون بنا. نظل هكذا حتى يبزغ الصباح، فيلتئم البلاط، وتغور الأشجار، وتنهض المباني، وتعود الحوائط إلى مكانها، وتنبسط الطرقات وتجري فوقها السيارات. يعود البشر، ويفر الموتى.

fb/mashro3pdf

أرض جديدة

دفنتُ هاتفي المحمول في الجزيرة الواقعة في منتصف الشارع. هكذا كنا نفعل عادة عندما نغادر بيوتنا متجهين إلى المدينة. ندفن هواتفنا عند تقاطع شارعنا الصغير مع الشارع الرئيسي، في حوض الجزيرة المقابل، ونذهب إلى المدينة خفافًا، ثم نستردها عندما نعود. لكني عندما عدتُ في هذه المرة لم أجد هاتفي، وعبثًا أخذت أنبش الأرض بأظافري بحثًا عنه، حتى أخبرني أحدهم أن الحكومة جاءت وقلَّبت تربة الجزيرة الجدباء بأخرى خصبة، وأن مزيدًا من التربة الخصبة في الطريق الآن. وفجأة انشق الشارع عن رتل لا ينتهي من مركبات محمَّلة بأرض زراعية تفوح منها رائحة التبن، ومغروسة فيها زنابق طويلة للغاية، تكاد تشبه عيدان البوص في طولها. كانت المركبات صغيرة، تسير وئيدة، وفي مقدمة كل عربة لمعت أضواء سرينة برتقالية اللون. أخذتُ أتأمل هذا الرتل أنا وأمي التي وقفت الآن بجانبي، وجعلنا نشاهد مراسم إحلال التربة الجديدة وسط بهجة الأهالي الذين لم يسبق أن رأوا اهتمامًا بشارعهم مثل هذا من قبل. وفهمتُ أن التربة التي دفنت فيها هاتفي قد اختلطت بتربة جديدة وأصبحت في مكان آخر. رأينا كيف يقوم العمال بنقل التربة الجديدة وفرشها في أحواض الجزيرة بعد تقليب

fb/mashro3pdf

التربة القديمة، وطمأنتني أمي أننا سنجد الهاتف، مقترحة أن نطلب رقمي من هاتفها ونحن نسير بموازاة الأحواض لعل هاتفي يصدر صوتًا أو ضوءًا فنعثر عليه. أخذنا نسير في الشارع بموازاة أحواض الجزيرة ونحن نتصل عبثًا برقم هاتفي المفقود. فالشارع كان طويلًا، والمركبات لا تنتهي. ثم أخذتني أمي وذهبنا معًا إلى رجل لكي نطلب منه المساعدة. كان هو «التُربي» المسؤول عن مقابر العائلة، تحدثنا قليلًا عن الأحوال، وسألناه عن باب «التُربة» الذي طلبنا منه أن يطليه بدهان جديد، وهو أخبرنا أنه سمع عما حدث في جزيرة الشارع، وأن كثيرين يشكون من فقدان متعلقاتهم لكن لا شيء الآن يمكن فعله من أجل مساعدتهم. أخرجت أمي مبلغًا من حقيبة يدها، وأعطته للتُربي، كما تفعل في كل زيارة للمقابر، وشكرناه وانصرفنا. ثم عدنا إلى الشارع، ووقفنا حيارى أمام الحوض الخاص بشارعنا. كان هاتفي يحمل أرقام أصدقائي والرسائل الخاصة بعملي وتفاصيل أخرى كثيرة، فُقدانُها كان يثقل على صدري. وفجأة نهض من الأرض رجل له سمت الموظفين الحكوميين، كان فيما يبدو نائمًا ولم نلحظ وجوده. قام وهو ينفض عن بذلته «السفاري» التراب، وسألنا إذا كنا نبحث عن شيء. فأخبرناه بقصتنا، فقال إن الأشياء التي كانت مدفونة في تربة هذا الحوض قد سُلِّمت إلى رجل في الجوار، وأنه شهد اليوم خمسة

fb/mashro3pdf

أشخاص قد جاءوا واستردوا متعلقاتهم منه. فابتهجنا كثيرًا وسألناه عن مكان حارس الأمانات، فقال إنه عادة ما يجلس هنا، لكنه ذهب في مشوار قصير وسيعود. وأفسح لنا مكانًا بجواره، فجلسنا.

بقعة ظلٍّ

في عالم يقوم على خطف الانتباه وشحذ الوعي، في عالم يمكن فيه الإمساك بكل لحظة وتسجيلها ومشاركة الآخرين بها، في عالم تصلح كل لحظة فيه أن تكون بثًّا مباشرًا «حيًّا»، في عالم كهذا لا يبقى سوى النوم كمكان أخير للقاء الموت. الاتصال بالأحياء بات شغل يومنا الشاغل، أما موتانا فيقفون حولنا في انتظار أن تتراخى قبضة انتباهنا المركزة على اللحظة، لعلهم ينفذون إلينا. وأمام صلابة انتباهنا الذي يبقيهم دومًا منفيين في الخارج لا يبقى أمامهم سوى أن يزورونا في مناماتنا. موتانا لا يرغبون في نصب تذكاري، ولا في طقس جماعي لتذكرهم. لا يطالبوننا بالقصاص أو الانتقام، ولا يرغبون حتى في أن نتذكرهم. موتانا الذين يزدادون يومًا وراء يوم يريدوننا فقط أن نتركهم يبقون بيننا

fb/mashro3pdf

لأن لا عالم آخر يذهبون إليه. يقولون لنا إن الواقع الذي نحياه ليس حكرًا علينا نحن الأحياء، ففيه تعمل قواهم كما تعمل قوانا، تحركه طاقتهم الغائبة بقدر ما تحركه طاقتنا الحاضرة. موتانا الذين لم نعد نسمح لهم بالظهور سوى في الأحلام يقولون لنا إننا، نحن الأحياء، لسنا أحياء لأننا نعيش في عالم آخر غير عالم الموتى، وإنما لأننا ما زلنا قادرين على الموت، أي على العبور من حال إلى حال. الموت الذي ينفيه وعينا العصابي لا يحدث في مكان آخر غير الواقع، فهو ما يقلب تربته ويخرج منه الجديد. موتانا يتسللون أفرادًا إلى مناماتنا، فيزداد غيابنا فيهم وحضورهم فينا يومًا بعد يوم. موتانا لا يريدون أن يبقوا أفرادًا في الأحلام ككائنات أسطورية، بل يريدون أن يذوبوا داخلنا لكي يهدأ روعنا قليلًا، فنتعلم كيف نشرد ونبتعد، كيف ننفك ونستعيد الواقع من أسر اللحظة الحاضرة.

تدريب طويل

أمام الموت اليومي المبثوث في ساعات العمل ومحطات الطريق المزدحمة، أمام سأم اللحظات الخاوية التي

fb/mashro3pdf

لا تنتهي، أمام موت المدن الكبرى المبتذل، هناك موت آخر أكثر صدقًا يقترحه «موريس بلانشو». موت يعيد للحياة نضارتها وللموت جلاله. هذا الموت لا يسقط كالصاعقة وإنما هو حصيلة جهد ومثابرة، يعكف المرء على تربيته حتى يكبر داخله شيئًا فشيئًا. لا يوجد في هذا الموت ما يوجب الهروب منه، فهو ليس خروجًا من الحياة، وإنما عودة إلى قلبها السائل المضطرب بالتحولات. هذا الموت لم يعد مشخصنًا وإن كان لا يزال فرديًا، فهو لم يعد موتي أنا، بل هو موت غُفل أعَرتُه جسدي. مثله مثل فعل النوم لا يمتُّ هذا الموت بصلة لما نفهمه تحت كلمة «فعل»، فهو لا يحرك شيئًا ساكنًا من مكانه، وبالرغم من ذلك فهو نشط للغاية، لأنه يغير حال كل شيء. فكل ما يدخل فضاءه يصبح غير مرئي، ويتحرر من ابتذال الغايات الواضحة. وهو أيضًا مثل النوم تدريب طويل على الاستسلام، الاستسلام للضعف وقلة الحيلة، الاستسلام للمجهول، الاستسلام للحوض غير الذاتي الذي تسبح فيه ذاتيتنا. يقول «بلانشو» إنه في وجه الفناء لا يتعين علينا أن نبحث عن الأمان، وإنما علينا أن نسارع بتقديم ضعفنا وهشاشتنا وسرعة عطبنا، فهي وحدها كل ما نملك. موت «بلانشو» يبعده عن الحياة المتكلسة، ويقربه أكثر من الحياة الهادرة، فكلما مات أكثر،

fb/mashro3pdf

غرق أكثر في قلب الحياة المليء بالتحولات، وتحرر من ملكيته للأشياء أو ملكيتها له. موته يحدث ببطء وبدأب، وبمنتهى الفردية، تمامًا كالنوم.

قفزة في الهواء

كانت الصور تطير متنقلة بين أيدينا. نتكالب فوقها منتظرين دورنا في أن نحملها بين أيدينا ونقلب فيها عن قرب. نعلِّق بصخب عليها، فنشيد بهذه، أو ننتقد تلك، ونتعجب محاولين معرفة من قام بتصويرها. ملمسها كان ناعمًا بين أصابعنا، بعضها كان ملونًا وبعضها الآخر أبيض وأسود. في كل صورة ينفتح عالم بأكمله، كأنها طيَّة من طيَّات الزمن، أو كأنها تلك الأيام التي يداولها الله بين الناس. في إحدى الصور رأيت نفسي وسط نهر من البشر، أضع فوق أذنيَّ سماعتين كبيرتين تشبهان سماعات مشغلي الأسطوانات، فلم أعرف ما إذا كنتُ في مظاهرة أم في فرح. وفي صورة أخرى رأيتُ أسامة وهو يقف مستندًا بذراعه اليسرى على الهواء، حاملًا جسده كله على ذراعه تلك. كانت قدماه تطيران أمامه وذراعه اليمنى ممدودة

fb/mashro3pdf

بجانبه. كان يبدو أنه يقوم بقفزة ساحرة التقطتها الكاميرا في اللحظة المناسبة. ظللنا نشير إلى الصورة منبهرين، وندقق فيها لعلنا نعرف حلًا للغز وضع أسامة الطائر، لكننا لم ننجح. فقد كانت الصورة داكنة، وخلفيتها خطوط من الأضواء السائلة. وبقي أسامة طائرًا أمامنا بوجه خلا من الانتفاخ الذي كان يصاحبه في سنواته الأخيرة قبل رحيله، بوجه شاب لم نعرفه به من قبل، يرتدي نظارة لم يرتدِها في حياته، ويتطلع إلينا وهو يضحك.

ماذا يحدث عندما ننام؟

تتفصد جباهنا بالعرق. يسيل اللعاب من أفواهنا. تترسب ملوحة على شفاهنا. تنبعث رائحة خفيفة من أجسادنا. تتكثف غشاوة على أعيننا. تنتصب أعضاؤنا. تتصدع رؤوسنا. يمتد فراغ في أرواحنا. يختفي ألم الكتف. يندمل جرح الإصبع. تتشكل أخاديد على الوجنة اليمنى. بثور صغيرة تظهر على الجبهة. شامة تبزغ على الساعد. شرخ في البشرة يحدث عند الركبة. عضلة تنمو. ذكرى جديدة تطفو. يحل الهدوء على حركة الأمعاء. يزهو لون

fb/mashro3pdf

الدم في الشرايين. ينساب هرمون البناء. ينحسر هرمون الإجهاد. تضمر عضلة العين. يلتوي الكاحل. تبيضُّ خصلة شعر. تختمر فكرة. ينمو ظفر الإبهام. تنشق اللثة عن ضرس جديد. يرتعش الجفن. تسقط عدة شعرات من الرأس. تتجعد البشرة تحت العين. يصفو المزاج. تنجلي البصيرة. تشق الحموضة طريقها إلى الحلق. تنبسط عضلة الفك. تنكسر سنَّة من الصف العلوي. كيف حدثت كل تلك الأشياء؟ لا ندري، لقد استيقظنا فوجدنا أنفسنا على هذه الحال.

بنية الفجوة

في المرحلة الأولى يخفت الضوء تدريجيًّا وينسحب الوعي ببطء. في المرحلة الثانية تنخفض درجة حرارة الجسم انخفاضًا بسيطًا، ويبدأ الانفصال عن الوسط المحيط. في المرحلتين الثالثة والرابعة، تنفتح الأعماق، فتهدأ موجات الذهن، وينخفض ضغط الدم، يبطؤ معدل التنفس، تنبسط العضلات، وتنساب هرمونات البناء في الدم. في المرحلة الخامسة التي

fb/mashro3pdf

تسمى «مرحلة حركة العين السريعة» يستيقظ الذهن، وتهدر موجاته، بينما تبقى العضلات منبسطة. تنوس العين، تتشكل الأحلام، وتأخذ الذاكرة في ترتيب أرففها. لذلك يمكن تسمية «مرحلة حركة العين السريعة» بـ«مرحلة اليقظة النائمة» لشدة نشاط الذهن فيها. ومع انتهائها تكتمل الدورة، لتبدأ بعدها دورة جديدة. في الليلة الواحدة تتتالى أربع أو خمس دورات. لكنها دورات غير متماثلة، فزمن الدورة يتغير من دورة إلى أخرى. في الدورة الأولى تطول المراحل السابقة لحركة العين السريعة، لتستغرق نحو ساعة ونصف، في حين تستغرق مرحلة حركة العين السريعة نحو عشرين دقيقة على الأكثر. ومع توغل الليل تقصر المراحل الأولى وتطول مرحلة حركة العين السريعة. ففي الدورة الأخيرة تختفي مرحلتا الأعماق، الثالثة والرابعة، وتمتد عوضًا عن ذلك مرحلة حركة العين السريعة لتستغرق وحدها نحو الساعة. يهدر فيها الذهن المتيقظ في قلب الجسد المرتخي، وتتحرك خلالها العين كتوتر يصل إلى أقصاه، أو كاحتمال يوشك على التحقق. فيزداد سطوع الضوء ويطفو الوعي شيئًا فشيئًا، لتخرج يقظة الصحو من رحم يقظة النوم.

fb/mashro3pdf

سألها:

- متى حدث ذلك؟

فأجابت:

- قبل عام أو أكثر.

سألها:

- ماذا حدث وقتها؟

فأجابت:

- لم يحدث شيء.

لم يفهم، فألحَّ في سؤاله:

- لا بد أن يكون قد حدث شيء.

فلم تجب. كانا مستلقيين بجوار بعضهما في الفراش. هو ممدد فوق السرير بصدر عارٍ، وهي مستندة بظهرها على الحائط الملاصق. قال:

- لم يحدث إذن أي شيء، تبخَّر حبُّك لي هكذا بين عشية وضحاها، أليس كذلك؟

ثم رفع جذعه ليصبح بموازاتها، ونظر إليها غير مصدق. بقيا صامتين لوهلة إلى أن قال:

- أعرف أن الفترة الماضية كانت عصيبة، وأنني تراخيت

fb/mashro3pdf

أحيانًا في البحث عن عمل، لكن أعدك بأن كل شيء سيتغير.

فنظرت إليه وقالت:

- أنت تعرف أن ما يهمني هو أن تكون سعيدًا، وليس أن يكون لديك عمل.

فزعق:

- ما الذي حدث إذن؟

فأجابت بحزم:

- لم يحدث شيء.

تطلع أمامه وأخذ يتحدث إلى نفسه:

- تريدين إنهاء سبع سنوات من الزواج هكذا، ومن دون سبب!

كانت توشك على الانهيار، لكنها تماسكت. كان تنفسها يضطرب فتنهد، وعيناها تغرورقان بالدموع فتغمضهما. ثم التفتت إليه وقالت بصوت مرتعش:

- أنا أيضًا أبحث عن سبب، يومًا وراء يوم أصحو وأنا لا أعرف ما الذي نفعله معًا. في البداية شعرتُ بالرعب، وأخذت أقاوم هذا الشعور، حاولت أن أثبت لنفسي أن الحب ما زال موجودًا، لكني فشلت.

ثم انهارَت، وتدفق السيل الذي كانت تكتمه. لكنها لم تتوقف عن الحديث، وقالت وسط دموعها:

fb/mashro3pdf

- حبِّي لك لم أعد أجده، ولا أعرف أين ذهب. استيقظت ذات صباح ولم أجده. نعم، هكذا بكل بساطة. كأنه نهر غاضت مياهه فجأة.

برزخ

لا يمكنني أن أنتقل من اليقظة إلى النوم، أو من النوم إلى اليقظة، من دون أن أتغير. عندما أنام أخرج عن ذاتي فأصبح لا أحد، وعندما أفيق أجد نفسي في واقع جديد. لا يمكنني أن أدخل في النوم إذا ما فشلت في ترك نفسي وتسليم أمري، ولا يمكنني أن أستيقظ إذا ما فشلت في إعادة اكتشاف الواقع من جديد. الأرق هو الفشل في قبول التغير اللازم لعبور البرزخ، ورفض ترك الزمام والذهاب إلى عالم غير ذاتي. أو هو محاولة الدخول في النوم من دون تقبل شرطه، أي اختزال النوم إلى مجرد وظيفة عضوية، وهي إراحة الجسد لاستجماع القوة. أما السير نومًا فهو إجابة النوم الساخرة، والمرعبة في الوقت نفسه، على منطق اليقظة الوظيفي. فالسائرون نيامًا تعمل وظائفهم التي تتطلبها اليقظة بكفاءة تامة، فهم

fb/mashro3pdf

يسيرون ويتحدثون، ويقومون بأفعال محددة، لكنهم يبقون هائمين في انعكاسات الواقع، عاجزين عن الدخول فيه من جديد. السائرون نيامًا ومن يعانون الأرق تعطلت قدرتهم فجأة على التغير والتحول، فبقوا عالقين بين النوم واليقظة.

محارة

وأنا مستيقظ يغيب جزء مني، يشرد في تفاصيل الذاكرة التي تبطِّن لحظتي الحاضرة، ثم ينجرف إلى كل ما حدث وكل ما كان يمكن أن يحدث. وأنا نائم يحضر جزء مني، يستعيد الواقع من ذاكرتي ويرسمه في حلم كما لم يسبق لي أن رأيته، فيبدو كأنه حدث على نحو آخر. كأن الشرود هو الغياب الذي يتوهج في قلب اليقظة، والحلم هو الحضور الذي يتكثَّف في جوف النوم. كلاهما، الحضور والغياب، اليقظة والنوم، يسري أحدهما في قلب الآخر، ولا يمكن أن يوجد بمعزل عنه. تمامًا مثلما يسري النسيان في قلب التذكر. فالنسيان لا يلغي الذاكرة، ولا يحدث خارجها، وإنما هو نقطة على مسارها تعيد تشكيل نفسها عندها من خلال تذكر جديد. ذاكرتي، مستجيبةً للنبض الذي يخلقه

fb/mashro3pdf

شرودي ومنامي، بعد أن اعترضا مسار حضوري ويقظتي، تتحرر من الأرشيف الذي تكلس فوقها كمحارة، وتعود كائنًا حيًّا يتجدد ويولد من جديد. فالتذكر ليس هو ما يسهر على انتظام الأحداث في عقد الذاكرة، بل هو الولادة الجديدة للذاكرة بعد النسيان. يحدث النسيان أولًا كتوق إلى ذاكرة جديدة، فتنسل اللحظة هاربةً من أسر التتالي الخاوي للذاكرة القديمة. ثم يأتي التذكر لا لكي يعيد ما انسل إلى حظيرته، وإنما لكي يكتشف تاريخًا جديدًا لم يكن ينتبه إليه من قبل. في كل صباح ينادي الواقعُ الذاكرةَ، فتخرج من محارتها كاشفة ضعفها وعريها كأنها مولود جديد. وفي كل مساء تنسحب الذاكرة مرهقةً إلى محارتها وتغمض أعينها، فيأتي النسيان ليشق مسارات جديدة داخلها.

جزيرة نائية

الجزيرة أرض ضعيفة جغرافيًّا، فهي نقطة وحيدة تحيطها المياه من كل جانب، ومعزولة تمامًا عن اليابسة القوية. تكاد تبدو وكأنها قرص طفا للتو فوق

fb/mashro3pdf

سطح الماء، وسيختفي على الفور إذا ما هبَّت نحوه رياح قوية. والجزيرة النائية هي أكثر هشاشة وضعفًا من غيرها من الجزر، ليس فقط من جهة الجغرافيا، وإنما أيضًا من جهة الوعي الذي يتمثلها. إذ تغدو الجزيرة النائية مسكونة بأقصى ما في الخيال من جموح وإيغال، لنأيها الشديد عن الواقع. فالمخيلة تؤسس الجزيرة في الوعي، مثلما تؤسسها الاكتشافات الجغرافية على الخريطة، ليصبح هناك «جزيرة الكنز»، و«جزيرة الجياد الناطقة»، «جزيرة حي بن يقظان»، و«جزيرة روبنسون كروزو». أي أن ما يجعل من جزيرة ما جزيرة نائية ليس بالضرورة شساعة بعدها عن اليابسة فحسب، وإنما أيضًا جموح وإيغال المخيلة التي تسعى للوصول إليها. «جزيرة روبنسون كروزو» على سبيل المثال هي أقل نأيًا وإيغالًا من «جزيرة حي بن يقظان»، لأن عالم اليابسة يُعاد تأسيسه فوق الأولى، في حين تفتح الثانية ذلك العالم على احتمالات جديدة غائبة عنه. بل يمكن القول إن «جزيرة روبنسون كروزو» لم تعد جزيرة بالأساس لأن اليابسة قد امتدت إليها واستعمرتها، في حين بقيت «جزيرة حي بن يقظان» متمسكة باختلافها عن اليابسة. في هذه الجزر النائية يظهر جليًّا التوتر القائم بين الجزيرة واليابسة، فاليابسة المجبولة على التوسع

fb/mashro3pdf

والتمدد تصطدم بتمنُّع الجزيرة، فتُضطر الأولى إلى التحول والانفتاح على احتمالات جديدة، ولو إلى حين. جزيرة النوم، وجزيرة الشرود، جزيرة الموت، وجزيرة الهذيان، كلها جزر أقرب إلى «جزيرة حي بن يقظان» منها إلى «جزيرة روبنسون كروزو». فهي جميعها انقطاعات حقيقية في يابسة الواقع. جزر داخلية نائية، موقعها في قلب الواقع بالرغم من انفصالها عنه. تلوح عند أقرب منعطف. ما يجعلها نائية هو قدرتها على أن تفتح الواقع على احتمالات جديدة لا يمكنه أن يصلها من دون أن يتغير. ولأنها نائية فهي ضعيفة وهشة، لذلك فهي سرعان ما تتوارى. كأنها جزر سحرية، تظهر لوهلة قصيرة ثم تختفي تحت وطأة تمدد اليابسة وملئها لكل الفجوات التي تصادفها في طريقها.

السُّلطة

أوكلت إليَّ مهمة متابعة خبر تنحي بشار الأسد عن السُّلطة. كان الخبر مفاجئًا، وجاء في ساعات الليل المتأخرة قبل أن أنهي ورديتي، فهاتفني مديري الجديد

fb/mashro3pdf

من بيته طالبًا مني أن أقوم بهذه المهمة، على أن أجرِّب قالبًا جديدًا لهذه المتابعة. ثم شرح لي هذا القالب، وفهمتُ منه أن عليَّ أن أدبِّج الخبر في مربعات نصية متتالية تشبه مربعات صفحة الوفيات، وفي كل مربع أضع صورة جديدة وأكتب جزءًا جديدًا من نص الخبر، مصاحبًا بأسماء جديدة. وقال المدير إنه من المفهوم أن تكون أسماء المربعات الأولى هي أسماء الوزراء تليها أسماء المدراء، ومن بينهم اسمه، ثم باقي الأسماء. وطلب مني أن أضع تصورًا للنص المصاحب للصور والأسماء. فقلت له إني سأرسل له تصورًا خلال ساعة على الأكثر. بقيت في مكتبي أتابع صور رحيل الأسد على شاشة التلفزيون كما تابعت من قبلها صور رحيل رؤساء آخرين مؤخرًا. كان الأسد يقف فوق سلم طائرة، ويرتدي معطفًا أسود، فلا يكاد يظهر وسط الظلام الذي تقطعه بعض أضواء الفلاش. غرقت في التفكير في ذلك النص الذي عليَّ أن أكتبه، وفي ترتيب الأسماء التي يجب أن تصاحب الخبر، وفي نوعية الصور التي ستصاحب مربعات الخبر. ربما كان عليَّ الاستعانة ببعض الديباجات المعتادة في مثل هذه المواقف ثم أنثرها أجزاء بين المربعات. «بمزيد من السعادة والأمل نزفُّ إليكم خبرًا لطالما تطلعتم إليه، خبر سيريح

fb/mashro3pdf

ضمائركم، ويُرجع ثقتكم في المستقبل المشرق، هذا الخبر يأتيكم برعاية... (أسماء الوزراء والمدراء)». ثم تنبهت إلى رنين الهاتف بجواري. كان المدير يسأل عن المهمة التي كلفني بها. قلت له بتلعثم إني أعمل بجد عليها، وإني أقترب من الوصول إلى تصور للنصوص والصور والأسماء. وضعت سماعة التلفون وتذكرت القوالب الخبرية التي عوَّدنا المدير القديم على العمل بها منذ بدأ مسلسل سقوط الرؤساء، والتي تتغير الآن بعد وصول المدير الجديد إلى منصبه. ثم نظرتُ إلى شاشة التلفزيون وتابعت مشاهد القتال العنيف الدائرة في أحد أحياء حلب، ثم لقطات قريبة لوجه الأسد، كان مرهقًا ومرتبكًا. عندها تذكرت فجأة أنه لم يسبق لي أن رأيت وجه المدير الجديد من قبل، وأني لا أعرف سوى صوته القادم من بعيد. وبدلًا من أن أعمل على النص المطلوب مني، أخذت أفكر في ذلك القالب الجديد الذي يجب أن أعمل وفقه الآن، وتساءلت ما إذا كانت القوالب الجديدة تتزامن مع مجيء رؤساء العمل الجدد، أم مع رحيل رؤساء الدول القدامى. أم لعل تعاقب القوالب هو من طبائع الأمور! ثم دق جرس الهاتف مرة أخرى، وسمعت بوضوح رنينه وهو يملأ تضاعيف هواء المكتب.

fb/mashro3pdf

الخط الفاصل بين النوم واليقظة هو حدود الدولة الداخلية، عنده تتشوش السُّلطة وتنحلُّ القوانين. إذ إننا عندما ننام لا نعود مواطنين خاضعين للقانون، وإنما نصبح أعضاء في جماعة سرية. جماعة تحتفظ في الخارج بمظهر المواطنة، بينما تفرُّ في الداخل إلى جوف الأرض. كم تشبه الجماعة التي انضممنا إليها في نومنا حال الخلايا النائمة، فالأخيرة اكتشفت أيضًا زيف المواطنة واستحالتها، فحولتها إلى مجرد واجهة يمكن العمل من خلفها ضد الدولة، وغطاء يمكن المرور بواسطته عبر أنظمة المراقبة من دون إثارة الشك. كذلك النائم، فهو لا يكفُّ عن الاختفاء داخل تضاعيف جسم الدولة، هاربًا داخل جسده من الأعين الحارسة، وذاهبًا إلى حيث لا يمكنهم العثور عليه أبدًا. غير أن المجاز المطروح بين النائم والخلية النائمة سرعان ما ينتهي عند تدبُّر المقاصد. فعندما تستيقظ الخلايا النائمة، وهي لا بدَّ مستيقظة مهما طال أمد نومها، تنفجر القنبلة التي نجحت في تفخيخ أحد مفاصل الدولة بها، لتكتمل مهمتها. أما النائم فمعركته مع الدولة طويلة، لا تحسمها الضربات القاضية، لأنها ليست معركة مدفوعة بتبادل السُّلطة. النائم لا يرغب في استبدال دولة بأخرى، وإنما

fb/mashro3pdf

يرغب فقط في العثور على البقع العمياء في جسم الدولة، تلك الثقوب التي خرجت إلى الأبد عن سيطرتها.

العين الساهرة

كانت هناك مملكةٌ لليل، لكنها أفَلَت تدريجيًّا جراء التعدي المستمر على الظلام. عبر عقود طويلة من استخدام الإضاءة دُجُن الليل، وتم تحويله من حيز خطر، يبسط الأشقياء والأشرار سطوتهم عليه، وتمرح فيه الأشباح والعفاريت، إلى حيز آمن لا يثير القلق أو المخاوف. أنوار المدينة المتزايدة طردت أشباحها، جاعلة من الليل نهارًا آخر يمكن استغلاله في استكمال أعمال الصباح. وبذلك لم تعد موازين القوى تنقلب في الليل كما كانت الحال سابقًا، فتميل الكفة إلى المشردين وقطاع الطرق، بعد أن كانت تميل في الصباح إلى الحكام والأغنياء، بل أصبحت موازين القوى ثابتة ليلَ نهار. مملكة الليل التي حكمها اللصوص والمشردون والمهووسون والمجانين والشعراء أفَلَت وأصبحت امتدادًا للنهار، نهار مضاء بأنوار صناعية. وأصبح الليل وردية أخرى للعمل. كل هذا لم يحدث

fb/mashro3pdf

بفضل المنجزات العلمية والثورات التقنية فقط، إذ ما كان للمصابيح أن تنجح في مهمتها في تدجين الليل من دون عين الدولة الحارسة. فعين الدولة التي لا تنام هي شرط الأمان الليلي مهما زادت شدة المصابيح، ومن دونها سيصعب النوم، وسيتوقف العمل، وستسلل إلينا قوى الليل الشريرة مرة أخرى، كما تزعم. الحراسة هي العمل الليلي الأول، وبفضلها أقامت الدولة مملكتها على أنقاض مملكة الليل. وشيئًا فشيئًا لم يعد سهر الدولة يقتصر على الليل، ولم تعد الحراسة شأنًا من شؤون الظلام. بل أصبحت العين الساهرة حاضرة في كل وقت، وصار النهار يشبه النهار الاصطناعي الذي سبق أن تحول إليه الليل. ولم تعد عين الدولة بحاجة إلى اختلاف الليل والنهار، ولم يعد هناك مكان خارجها. لم يعد هناك سوى نهار اصطناعي واحد طويل، يسير فيه الجميع كالمسرنمين.

قانون طوارئ

قد يكشف الصبي ما يستره الكبار، وقد يؤذي المجنون نفسه أو غيره من العقلاء المحيطين به، أما النائم فما الذي

fb/mashro3pdf

قد يفعله ليستوجب من أجله أن يُرفع عنه القلم؟ ما هو الخطر المحتمل الذي يستلزم هذا العفو حتى يستقيم ميزان العدل؟ هل يكمن ذلك الخطر فيما قد يهذي به وهو نائم؟ أو ما قد يراه في مناماته؟ أم أن الانحراف عن الوعي المنضبط هو في حد ذاته حالة خطرة تستتبع تعليق القانون العادي وإعلان قانون خاص محله؟ لعل الوصول إلى إجابة بحاجة إلى النظر في مبدأ الشخصية. فالقلم الذي يسجل بحاجة إلى شخصية ينسب إليها ما يوثقه، والقانون بما هو تسجيل لمراحل الصراع الدائر بين الحكام والمحكومين بحاجة أيضًا إلى مبدأ الشخصية. فمن دون الأخيرة لا توجد سلطة تحكم، ولا توجد حقوق يمكن المطالبة بها أو تنظيمها، ولا واجبات يمكن الإلزام بها. لذلك فإن أقصى عقوبة يمكن إنزالها، كما لاحظ كثيرون، هي نزع صفة الشخصية عن صاحبها، تلك التي تؤهله لكي يكون مواطنًا في دولة القانون، وطرده إلى أرض الفوضى التي لا يسود فيها قانون، أي باختصار إعلان حالة الطوارئ. الشخصية هي إذن تقنية قانونية ووسيلة عقاب في الوقت نفسه. والنوم والطفولة والجنون هي جميعها حالات تشكل مصدر خطر بسبب تمردها على منطق القانون وعلى القاعدة التي يقوم عليها، وهي

fb/mashro3pdf

مبدأ الشخصية. فالنائم والطفل والمجنون ينفلتون من شخصيتهم كلٌّ على طريقته، ولذلك تتم معاقبتهم بتعليق القانون. إذ إن رفع القلم الذي يُظهر الرحمة يبطن أيضًا العذاب. فهو إن كان عفوًا وإعفاء من المحاسبة، بدعوى مراعاة مصلحة المعنيين أنفسهم على الأرجح، يجردهم في الوقت نفسه من الحقوق والواجبات ويطردهم من دولة القانون والتشريعات. النائم شخصية معطوبة من وجهة نظر القانون، لا يمكنها النهوض بذاتها، وليس لديها إرادة تؤهلها للاختيار، وبالتالي لا يمكن أن تخضع للمحاسبة. يعيش النائم، مثله مثل زميليه الآخرين الصبي والمجنون، على تخوم دولة القانون، خارج منطق الخير والشر. لا يوجد هنا قلم يسجل، فيمكن للنائم أن يصبح طفلًا، أو للطفل أن يصبح مجنونًا. ولأنه لا يوجد قلم يسجل، يمكن أيضًا قتل المجنون، أو اغتصاب الصبي. وككل قانون طوارئ يقوم على تعريف نفسه بأنه الاستثناء، لم يُرفع القلم إلى الأبد، ولكن جُعل مؤقتًا بشرط، وهو تغير الحالة. النوم والطفولة والجنون هي حالات طارئة، هي الاستثناء الذي لا يحق له أن يدوم. لذلك فالقانون معلّق حتى يصحو النائم، حتى يبلغ الصبي، حتى يعقل المجنون.

fb/mashro3pdf

كنت أنا وهاني جالسين في قاعة محكمة ننتظر الحكم. لم يكن بالقاعة سوى عدد محدود من الحاضرين، ثم دخل القاضي وكان يشبه الممثل محمد الدفراوي، باستثناء شعره الذي كان طويلًا وذهبيًّا. الدفراوي نظر إلى الحاجب وغمز له. زاد الترقب بين الحضور، وكان هناك بيننا من عقد الأمل على أن يدين القاضي الجيش، لكن أصواتًا عاقلة تعالت، موضحة أن القضية الماضية لم يُحكم فيها ضد صاحب دبُّورة واحدة، فكيف يمكن انتظار حكم عادل في هذه القضية التي يُحاكم فيها صاحب ثلاث دبابير. هاني كان قاعدًا بجواري عندما نطق القاضي الحكم بصوت غليظ، وكان بالطبع حكمًا في صالح الجيش. أخذ الحاضرون يهتفون: «يسقط يسقط حكم العسكر»، وأنا وهاني مشينا وأخذنا ميكروباص. ما أثار دهشتي هو أني طوال الطريق خارج المحكمة كنت أحكي لهاني ما حصل أمامنا للتو كأنه مشهد فاته في فيلم نشاهده معًا، وهو يعلِّق على ما أقوله من حين إلى آخر كأنه لم يكن حاضرًا معي في قاعة المحكمة. كان هاني أنحف كثيرًا مما رأيته آخر مرة قبل أن يموت، وكان شعره طويلًا. حكيت له عن ضفائر الدفراوي الذهبية، وهو قال لي بفتور:

- طيب وانتم كنتم رايحين مستنيين إيه يعني؟!

fb/mashro3pdf

حياة جديدة

نفضوا أيديهم واحدًا تلو الآخر من القتيل، وأعلنوا أنه لا مناص الآن من المصير المحتوم بعد أن فعلوا كل ما يستطيعون لتجنيبه إياه. كلٌّ منهم قام بدور صغير في مخطط محكم انتهى بوقوع القتيل في الفخ. ماذا فعل القتيل بالضبط حتى يستحق مصيره؟ القتيل هو أخي. أنا الوحيد الذي أدركتُ فجأة فداحة ما نفعل، فقررت أن أنقذه. تسلحتُ بمسدس، وأنقذت حياته في اللحظة الأخيرة من طلق ناري. كان يجب عليَّ أن آخذه بعيدًا، حتى عن أمه وزوجته اللتين اشتركتا أيضًا في مخطط القتل. كان عليه الآن أن يبدأ حياة جديدة بهوية جديدة في مكان بعيد. ودَّعته من دون أن أنطق بشيء، وهو استدار مذهولًا ليتطلع إلى حياته الجديدة.

أهل الكهف

الكارثة هي النقطة التي تتغير عندها طبيعة الصراع كليةً ليصبح صراعًا من نوع آخر، وبالتالي يتطلب نوعًا آخر من المقاومة. الكارثة بهذا المعنى ليست امتدادًا للصراع،

fb/mashro3pdf

وإنما نقطة تحوله الجذرية، النقطة التي يصبح ما بعدها لا يمت بصلة لما قبلها. لذا فهي لا تتطلب بحثًا عن حلول، ولا توسيعًا للنضال، وإنما تتطلب بداية جديدة لخلق أدوات مقاومة جديدة. تلك البداية الجديدة المنتظرة لا تولد عبر إدارة الكارثة أو التخفيف من آثارها، وإنما من خلال تقبُّل الانكسار أمامها حتى النهاية. وهذه هي وظيفة النوم، فهو ما يصل بنا إلى القاع، الذي من دون ملامسته لا يمكننا الصعود منه إلى السطح مرة أخرى. النوم، بكل ما يحمله من انكسار واستسلام، ليس وسيلة مقاومة في صراع، وإنما هو مخاض جديد في لحظة تحول الصراع. هو ظل الكارثة العاتية وصنوها الذي لا يمكنها أن تنكشف من دونه. عندما أوى الفتية إلى كهفهم هربًا من المدينة الظالمة، لم يؤسسوا مجتمعًا فاضلًا يحمل تعاليم ملَّتهم التي اضطُهدوا من أجلها، ولم يبنوا قلعة محصنة يغيرون منها على من ظَلمهم، وإنما ناموا فحسب. طوال ثلاثمائة عام، زادوا تسعة، لم يفعلوا شيئًا سوى النوم. ألف شمس وشمس أشرقت وغربت من دون أن تصدر عن أجسادهم الممددة أية حركة. حتى انكشفت الكارثة فاستيقظوا. الكهف الذي انسحب إليه الفتية لم يكن إذن مركزًا للمقاومة، وإنما مكانًا للانكسار التام والقطيعة النهائية. هذا المكان لا يمكن الخروج منه سوى بمخاض

fb/mashro3pdf

جديد. فالجماعة النائمة لا ترغب في المقاومة، وإنما تستولد بداية جديدة. والبداية الجديدة التي تخرج من رحم الكارثة هي بالضبط الاستيقاظ الذي يعقب النوم. فكل استيقاظ هو محاولة، حتى وإن بدت واهية، لبداية يوم جديد.

الحيوان الجالس

ستستيقظ حتمًا. قد تلبث عامًا أو ألف عام لكنك ستستيقظ حتمًا في النهاية. آخر ما تتذكره هو مشاهد حياتك وهي تتهاوى أمامك. تبدأ التصدعات على شكل شعيرات رفيعة لا تُرى بالعين المجردة، ثم تزداد اتساعًا فتصبح شقوقًا ثم انكسارات متتالية، حتى يصطدم رأسك بكرة هائلة وتخطفك الخاطفة. كيف نجوت؟ وأين ذهبت حياتك؟ انظر جيدًا، أنت لم تنجُ. أنت لُفظتَ من حياتك، وولدت من جديد مع صباح اليوم التالي. جزء منك مات إلى الأبد، أخذته الكارثة مع من أخذت. وعندما تفتح عينيك ستجد ذلك الجزء المتواري منك يقعي كحيوان وينظر إليك. في كل طريق تسير فيها ستجده

fb/mashro3pdf

جالسًا في زاوية، يغسل وجهه بيديه المرطبتين بلعابه، وينتظر مرورك لكي ينظر إليك. ستلمح حضور الحيوان في هلع، وسترغب في الاقتراب منه والتربيت عليه، لكن إحساسًا بالذنب سيتلبسك لأنك الناجي الوحيد، فتتحاشى النظر إليه. ثم ستلاحظ أنه لا يفعل شيئًا سوى أنه يجلس مقعيًّا، وينظر إليك منتظرًا أن تبادله النظر فقط. حتى تتشجع يومًا وتنظر إليه فيصغر. ستظل تسير في تلك الطرقات التي تقابل فيها حيوان الماضي، وسيظل هو يصغر تدريجيًّا كلما نظرت إليه حتى لا يتبقى منه سوى نظرته، وستسمي أنت هذه الطرقات بعد ذلك حياتك الجديدة. حياتك الجديدة التي لن تنمو وتزدهر سوى تحت نظرة حيوان حياتك الماضية.

لغة غريبة

عين النائم مصوبة دومًا نحو ما قد حدث، وليس نحو ما يحدث. فالنوم يلبي نداء الماضي المحمَّل دائمًا بالكوارث، ويسير كالمندوه نحوها، مثل ملاك «بنيامين»، لا لإصلاحها أو تغييرها، وإنما من أجل منحها حياة

fb/mashro3pdf

ثانية. هنا لا تجد الكارثة الشخصية أو الجماعية حلًّا لها، وإنما يتجدد حدوثها في حياة أخرى. النوم في انشداده نحو المآسي وفي استعادته لها يستخلص من الماضي لغة جديدة. إذ ما هي اللغة إن لم تكن تلك القدرة على انتزاع ما حدث من نفسه ليصبح قادرًا على الحدوث خارج نفسه؟ ما هي اللغة إن لم تكن قدرة الكلمات على الانزلاق والتحول ومغادرة ذاتها لصنع معانٍ جديدة كل مرة ترد فيها؟ هذه اللغة التي يصنعها النوم هي لغة غريبة، جملها تنزلق إلى ما لانهاية، هي بالأحرى لغة وسيطة، هاذية، كأنها تعازيم وإرهاصات لولادة ثانية. فالنوم معنيٌّ دائمًا بالانقطاعات التي تحدث في مسار الحياة وليس باستمراريتها. واهتمامه بالماضي لا ينبع من رغبة في ترتيب التاريخ أو فهم تطوره كما يحدث عادة في اليقظة، لأن التاريخ لا يتطور بالنسبة إلى النوم، وإنما هو كارثة لا يمكن الخلاص منها سوى بولادة جديدة. هذه الولادة الجديدة هي الاستيقاظ. الولادة الثانية ستغير بالفعل الماضي، لكنها لن تصلحه. فالاستيقاظ هو أمل النوم ومستقبله. ومع كل ولادة جديدة تدب الحياة في الماضي، ليس كما حدث، ولكن كما كان من الممكن أن يحدث، فيختلط بالحاضر وينفتح على المستقبل.

fb/mashro3pdf

لسان النار

رأيتُ لسان النار وهو يشتعل داخل كوَّة في الحائط مجاورة لمقبس الكهرباء. لسان صغير وحيد يتمايل بهدوء داخل كوة صغيرة مربعة، لكنه ينذر بخطر بالغ. كنت الوحيد الذي رأى ما يحدث، فأخذت أجري كطفل ملسوع لأحذر الباقين من الكارثة. كنت أعرف تمامًا ماذا يحمل معه هذا اللسان، إنه مقدمة لنار ستصطلي داخل الجدران، ثم ستخرج لتلتهم البيت فلا تبقي ولا تذر. ظللت أجري بين الغرف محاولًا لفت الانتباه إلى ما يحدث، وأتوسل إلى من أراهم لكي يدركوا الخطر الذي يحيق بنا جميعًا، وأقول لهم إن علينا أن نفعل شيئًا وإلا شارفنا جميعًا على الهلاك. بعدها كنت أعود سريعًا إلى الكوة الصغيرة لأعرف ما إذا كان اللسان قد استجاب لمحاولاتي أم لا. وفي كل مرة أعود فيها إلى الحائط كنت أتقدم في العمر، وأرى شيئًا مختلفًا يحدث. تارة أرى لسان النار يتمايل أمامي بشدة كأن ريحًا تعصف به من الداخل، وتارة يكون قد ذوى فلا أراه بتاتًا، وتارة أخرى أرى الحائط وهو يتَّقد من شدة الحرارة فيتحول لونه إلى الأحمر الزاهي. ثم أعود لأكمل طوافي المحموم بين الغرف. في هذه الرحلة أكون قد مررت بكل الغرف التي دخلتها في حياتي. مررت

fb/mashro3pdf

بحمام بيت الطفولة، وغرفة معيشة بيت الصبا، ومطبخ بيت الزوجية، وغرفة نوم منزل الوحدة. رأيت كل أقربائي وأصدقائي وحبيباتي. رأيت من بقوا معي ومن رحلوا. وأخذت أحذرهم واحدًا واحدًا من الكارثة التي تنضج ببطء وهدوء في أعماق حياتي.

التابع

من بين كل الأوضاع التي يمكن لجسمه أن يتخذها يختار وضعًا واحدًا ويثبت عليه. يبقى مغمض العينين، بينما تجلس هي بجوار النافذة تجيل النظر في أشياء غرفته، تمزج حضورها بغيابه، ويتناهى إليها صوت تنفسه الذي أصبح منتظمًا الآن. قبل أن ينام كانا يتحدثان عن زوجها السابق، وعن الرحلة التي سيقومان بها الأسبوع القادم. تتأمل وجهه وقد خلا تدريجيًّا من أي تعبير وهو نائم. لم يعد يبدو سعيدًا لرؤيتها، ولم تعد تظهر عليه علامات الدهشة أو الاستمتاع بما تقوله. وجهه أصبح ساكنًا، غارقًا في نفسه. فتتساءل إذا ما كان يبادلها الحب أيضًا أثناء نومه كما يبادلها إياه أثناء يقظته. هل يفكر فيها وهو

fb/mashro3pdf

نائم كما تفكر فيه وهي مستيقظة؟ ثم يتوقف المشهد. يتوقف قبل أن تتطور شخصية العاشق ليمنح قلبه لها بعد طول تردد، وقبل أن تدرك العاشقة أنها لا تزال تحب زوجها السابق. لماذا لا يمكن أن يكون للنوم قصة؟ على الأرجح لأن السرد بحاجة إلى شخصية وحبكة. والنائم لا يمكنه أن يكون بطلًا في حبكة درامية، ولا أن ينخرط في أحداث واضحة الملامح. النائم شخصية انفتح داخلها جزء غُفل يزداد اتساعًا شيئًا فشيئًا، تتضاءل أمام قوته التعبيرية أي صفة أخرى. فهو لم يعد غنيًّا أو فقيرًا، قويًّا أو ضعيفًا، ذكرًا أو أنثى، النائم أثناء نومه يفيض عن الصفات، فتصبح الأخيرة أضيق من أن تعبر عنه. صفته الوحيدة الدقيقة هي أنه نائم. وليس هناك حبكة يمكن إدراج النائم فيها، لأن فعله لا يمكن أن يصنع حدثًا يتطور وينمو مع الوقت. بكلمات أخرى ليس للنوم سردية. النائم ينقطع عمله، وتُعلَّق جميع قصصه. في هذا الثقب لا تتطور قصة حبه، أو قصة عمله، قصة عائلته، قصة صراعه، قصة يومه. وإنما تصطدم بعضها ببعض وتتداخل فيما بينها. النائم ليس لديه شيء يقوله أو يثبته، ولا يطلب من أحد أن يسمعه. لذا فإن النائم إذا ظهر في قصة كان شخصية ثانوية عابرة. يمر ذكره كحلية تزيِّن الحكي. يلوح في مشهد عابر ليتأمله الآخرون. أو،

fb/mashro3pdf

وهذا هو الأكثر قسوة، يُستعاض عن النوم كليةً بالحلم. ساعتها تستقيم الحسبة، وتظهر الشخصية والحبكة مع ظهور الحلم، فيبزغ الحالم ويتوارى النائم.

خلط

إلى أي ترتيب ينتمي النائم؟ إلى ما يحدث بالفعل أم إلى ما يحدث بالقوة؟ إلى عالم الوقائع أم إلى عالم الاختلاق؟ إذا صحَّ أن عالم الوقائع ينشغل بالأسئلة التي تطرحها اللحظة الراهنة، من أجل صياغة سردية واقعية، فإن النوم لا ينتمي إلى هذا العالم، لأنه يحتمي من الراهنية بالغياب، وينشغل بالأسئلة عن طريق نسيانها. وإذا صحَّ أن عالم الاختلاق يسعى لإيجاد وقائع بديلة لعالم الوقائع، أو تأليف سردية افتراضية، فإن النوم لا ينتمي كذلك إلى هذا العالم، لأنه عاجز عن توليد وقائع، ناهيك عن الاحتفاظ بها. امتداد النوم وارتخاؤه يجعلان ما يمسك به يتسرب ثانية من بين أصابعه، يجعلانه عاجزًا عن مدِّ خطوط أي سردية على استقامتها. النوم الذي تنقطع عنده السرديات ينتمي على الأرجح إلى ترتيب آخر غير عالمَي الحقيقة

fb/mashro3pdf

والاختلاق، ينتمي إلى ترتيب الشعر الذي هو حقائق مختلقة وخيالات واقعية، سرديات حقيقية تحولت إلى فرضية، وأخرى مفترضة تحولت إلى واقعية. الشعر مثل النائم مشرد بين هذين العالمين، لا ينتمي إلى أي منهما. خلاله يمر أحدهما إلى الآخر. وعلى مسارات هذا التداخل تتبعثر الشعرية. الشعر المختفي بين تضاعيف الأيام، المبثوث في المصائر وتمثلاتها، ينبع بالأحرى من هذا التداخل بين الحقيقة والاختلاق. أو لعل الشعر هو بالضبط عمل صيرورة التاريخ، أي المراجعة الدائمة لسرديات الحقيقة حتى تصبح مختلقة، والانفجار المستمر لسرديات مفترضة داخل الواقع. الشعر كالتاريخ خلط دائم لهذين الترتيبين: الحقيقي والافتراضي.

أساطير الأولين

تحت الوسادة حرز. تحت الوسادة حجر. تحت الوسادة صورة. تحت الوسادة كتاب. أدعية وأذكار. أسلحة وسكاكين. ليس هناك ما هو أقرب للمرء مما يضعه تحت وسادته. ومثلما لا تدخر التوابيت الفرعونية تعويذة أو

fb/mashro3pdf

تميمة قد تنجي صاحبها في رحلته عبر العالم السفلي، كذلك يضع النائم تحت وسادته ما يظن أنه سيحميه في رحلته ويقوده إلى بر الأمان. في تلك الرحلة الغريبة لا يمكن الاعتماد سوى على السحر، فالنائم - مثله مثل الميت - عاجز عن أن يقوم بأي فعل، فلا يبقى أمامه سوى إعادة الاتصال بتلك القوة القادرة على الفعل المباشر، والتي كاد ينساها. قوة السحر. عالم النائم تحركه قوى غريبة قادرة على التأثير مباشرة وعن بعد، ولا تعبأ بضرورة ارتباط أسبابها بنتائجها. لذلك أصبح النوم هو كل ما تبقى من الأسطورة في عالم انقطعت عنه المعجزات. الأسطورة هي السردية المستبعدة، سردية عالم لم يكن يفصل بين اليقظة والنوم. سردية لا يحكمها المنطق، وإنما تصوغها الرغبات والتحولات. أسطورة النائم هي نجاته بتسليم أمره لعالم كان يبسط للتو سيطرته عليه. أسطورته هي الوصول إلى نفسه عبر الخروج منها. لكن من أين تنبع تلك القوة السحرية للأشياء التي تعيش تحت الوسادة؟ على الأرجح من المنبع نفسه الذي سحر جسد النائم فأصبح جسدًا حاضرًا وغائبًا في آن، حيًّا وميتًا في آن. في حياتها الأولى لا تكتسب الأشياء قيمة أكبر من قيمتها العادية في شبكة التبادل، لكنها ما إن تجد طريقها إلى أسفل الوسادة حتى تخرج عن نفسها وتصبح قادرة

fb/mashro3pdf

على الانفعال. الأشياء التي تعيش تحت الوسادة تصبح كالطلسم، خاملة ومنفعلة في الوقت نفسه. هذه الأشياء تقف صامتة، لتستقبل النائم عندما يتسرب إليها في بداية رحلته، تختلط به ويختلط بها، ترافقه وهو يتدرج في معارج التحولات، ثم تعيده سالمًا عندما يحين الأوان.

بستان

المنحنى في مكانه على خاصرة الجبل، والطريق الملتوية لا تزال تنحدر من جهتها اليسرى. أسيرُ في الطريق من دون أن يقابلني أحد، حتى أجد محل البقال الهندي الذي كنت أشتري منه الموز وأنا صغير، أجده في مكانه على اليمين قبل أن يفضي الطريق إلى الساحة الكبيرة. كنت أقف أيامها أمام باب دكانه الخشبي الأخضر وأقول له بعد السلام الجملة التي علمني أبي إياها: «رفيق! رفيق! موز نقطة فيه؟». أقولها هكذا بتعطيش القاف. عندها يفترُّ فمه ذو اللثة الملتهبة عن ضحكة صافية، تعقبها جملة أو اثنتان بلغة لا أفهمها، ثم يُحضر لي الموز المبرقش بنقاط بنية وهو لا يزال يبتسم. واليوم أقف أمام باب الدكان وأرفع

fb/mashro3pdf

عينيَّ منتظرًا أن أرى البقال الهندي يقف وسط بضاعته القليلة وقد أضاءت ابتسامته عتمة المحل، لكني عوضًا عن ذلك أرى بستانًا طويلًا يمتد بعرض الباب الخشبي وبعمق لا نهاية له داخل الدكان. فأقف مدهوشًا أمام ما أراه. أمعن النظر لعلِّي أدرك نهاية البستان فأفشل، ولا أرى على امتداد البصر سوى زرع أخضر متوسط الطول، زرع يحرك الهواء سيقانه الرفيعة، وتنعكس أشعة الشمس الساطعة على أوراقه. لم يكن البستان الذي أراه أمامي الآن يتميز عن أي بستان عادي آخر رأيته من قبل سوى في اتساعه اللانهائي، فأطلق بصري مرة أخرى وأعيد تكرار المحاولة لعلِّي أعرف إلى أين يقودني هذا البستان. حتى أرى أخيرًا في الأفق ما يملك عليَّ زمام عقلي، أرى موجات الضوء تمرح فوق الزرع متلألئة، سحابة من ذرات دقيقة لامعة تطوف البستان لترسم أشكالًا مبهجة فوق نهايات الزرع، لا أكاد أدرك الشكل الذي يرسمه لمعانها، حتى تنحل الذرات، وتتحرك إلى زاوية أخرى من البستان. واجتاحني المشهد تمامًا وفكرت وأنا ذاهل أنه إذا كانت البضاعة الكاسدة قد تحولت إلى زرع أخضر فلا بد أن موجات الضوء اللامعة هي ابتسامة البقال الهندي التي بقيت تسري في المكان، مثل ابتسامة قطة «أليس» التي بقيت تسري في بلاد العجائب. لا أدري

fb/mashro3pdf

كم من الوقت وقفتُ مسلوبًا أمام طفولتي الغابرة وقد تحولت إلى حقل فاتن يمتد بعمق بلدة بعيدة كان أبي يعمل فيها، إلى أن فقدت قدرتي على تحمل هذه الفتنة فغادرت الدكان، ورجعت إلى طريقي الملتوية.

عتبة يومية

يمتلئ اليوم تدريجيًّا بالأحداث، فيقبل عليها المستيقظ ويتشبع بها وعيه شيئًا فشيئًا، باستثناء حيز صغير يبقى شاردًا في رأسه، تجوبه شذرات غائمة حملها معه من النوم. فقط من يستيقظ يدرك أنه كان يحلم، أما من لا يستيقظ فلا يدرك أنه خرج من حال ودخل حالًا أخرى. الاستيقاظ هو العتبة اليومية التي تفصل بين عالم وآخر، من يعبرها لا يصبح أبدًا مثلما كان قبلها. لكن الاستيقاظ لا يكتمل سوى باستعادة الحلم. واستعادة الحلم لا تعني الإمساك به أو تثبيته كشاهد على لحظة مضت، وإنما على العكس يسعى المستيقظ إلى أن يولج حلم الليل في النهار، إلى تذويبه داخل واقعه، لا عزله عنه. المستيقظ يستعيد حلمه من خلال تسريبه إلى مجريات يومه عبر حركة تغزله

fb/mashro3pdf

بذكرياته ورغباته ومخاوفه. فالحلم ليس حكاية في كتاب، أو مشهدًا في فيلم، وإنما طاقة تحول منفلتة دائمًا، قد يكون لها شكل شفاف، لكن لها قدرة كبيرة على النفاذ، واستعادتها تعني المرور من حال إلى حال. فقط المستيقظ هو من يعرف أن واقعه ليس سلسلة من اللحظات، وإنما سلسلة من العتبات، كل عتبة يعبرها ليصبح شيئًا آخر. عندها يمكن لليوم الجديد أن يبدأ.

هوَّة يومية

يمتلئ اليوم تدريجيًّا بالأحداث، فيقبل عليها المستيقظ ويتشبع بها وعيه شيئًا فشيئًا، باستثناء حيز صغير يبقى شاردًا في رأسه، تجوبه شذرات غائمة حملها معه من النوم. فقط من يستيقظ يدرك أنه كان يحلم، أما من لا يستيقظ فلا يدرك أنه خرج من حال ودخل حالًا أخرى. من لا يودِّع حلمه ولو بالتفاتة صغيرة قبل فقده المحتوم يفوِّت على نفسه فرصة الاستيقاظ، فلا يمر من حال إلى حال، وإنما يسقط في هوة تنفتح يوميًّا. من لا يستيقظ يلقي بنفسه إلى اليوم الجديد لكي يهرب من حلمه. لكنه يبقى نهبًا لأشباح

fb/mashro3pdf

لا يراها، تقفز فوق كتفه عند كل منعطف. الحلم لا يكتمل سوى بالانتباه إليه لاحقًا، ولو بالتفاتة صغيرة، بعدها يذوب في الواقع فيمتزج في الأحوال الأخرى. أما الأحلام التي لم يستلمها أصحابها فتصبح أشباحًا بائسة، تغدو أسيرة للواقع، والواقع أسيرًا لها. مثل «سيزيف»، يدحرج من لا يستيقظ دائمًا الصخرة من جديد، يبدأ يومًا يظنه صفحة بيضاء، ليكرر فيه فحسب ما فعله في اليوم السابق. واقع من لا يستيقظ هو كابوس مستمر لا يحدث فيه أي تحول. هو لحظة واحدة شاحبة لا نهاية لها.

المدينة الفاضلة

من فرط شدته، وعمق التغيير الذي يحمله معه، يحدث أن يتحول الاستيقاظ إلى حدث استثنائي غير قابل للتكرار، ويتم تثبيته إلى الأبد. فلا يغدو كالولادة أو الثورة صيرورة مستمرة، وإنما يصبح لحظة واحدة فقط يتحدد فيها كل شيء. وهذا هو الاستيقاظ الديني. «نيو» بطل فيلم «ماتريكس»، وآخر أبطال القرن العشرين، يكتشف تدريجيًّا أن الحياة التي يعرفها ما هي إلا وهم كبير، وأن الحياة الحقيقية تختفي وراء ماكينة

fb/mashro3pdf

الوهم العملاقة تلك. «نيو» يستيقظ بعد سبات طويل، ويتحرر من الحياة المزيفة التي طالما شعر بالغربة فيها، ويطأ أخيرًا الحياة الحقيقية التي طالما تاق إليها. هناك في تلك الحياة الحقيقية سيقود الصراع ضد الوهم والزيف حتى يحقق النصر المبين. استيقاظ «نيو» بهذا المعنى هو استيقاظ ديني بامتياز. فهو انتقال من زخرف الوهم إلى صفاء الحقيقة، وكلاهما يتحدد تعريفه مرة واحدة وإلى الأبد. فدار الوهم لا يمكن أن تنطوي فجأة على حقيقة، ودار الحقيقة لا يمكن أن يخالطها زيف في أي لحظة تالية. الاستيقاظ الديني هو احتفاء بالوصول إلى دار الحقيقة ودخولها، احتفاء بالوصول إلى غاية الرحلة. فالمرء يدخل حظيرة الدين مرة واحدة فقط، يستيقظ في دنيا الحقيقة لكي لا يغادرها أبدًا. استيقاظ «نيو»، مثله مثل الاستيقاظ الديني، هو لحظة وليس صيرورة. لحظة استنارة لها تبعات مصيرية وغير قابلة للتكرار، بعدها يتجمد الزمن ويُحسم الصراع إلى الأبد. لكن الزمن لا يتوقف عن الجريان، ولحظات الاستيقاظ التي يعبرها الزمن لا يمكن أن تنتهي أبدًا ولا يمكن أن تكتمل. الأجدر أن يكون الاستيقاظ صيرورة لا تريد أن تصل إلى غاية أو مكان نهائي، لأنها مراجعة مستمرة تحدث في كل مكان، وليست يوتوبيا أو مدينة فاضلة يُرام الوصول إليها والبقاء فيها. من يدري، لعل «نيو»، لو كانت أتيحت له فرصة أن يستيقظ من جديد،

fb/mashro3pdf

لكان قد أراح نفسه وتابعيه من عناء متابعة مهمته الرسولية في الوصول إلى مدينة «زيون» الفاضلة، وأدرك أن طريق النجاة لا تؤدي بالضرورة إلى ما وعدت به.

المدن الجديدة

نمت يرقة فاسدة في رحم المدن الجديدة وكبُرت حتى أصبحت وحشًا هائلًا يعربد في طرقاتها. ولم يكن سكانها يعرفون فيما يبدو بوجود اليرقة التي كبرت بينهم، فقد ربضت السيارات وادعة أمام البيوت، وأطلت البنايات الأنيقة من فوق الأسلاك الشائكة بجلال، وانعكست أشعة الشمس على واجهاتها المضلعة والمزينة بالزجاج الداكن، حتى إني لمست في نفسي إعجابًا بهذه البنايات ممزوجًا بحسرة على مصيرها المتوقع. أكملت سيري في طريقي بحذائها حتى عدت إلى المدينة التي أعرفها، وأنا أفكر في اليرقة التي كبرت فأصبحت وحشًا. أمضيت نهاري عالقًا في ذكرى ساذجة، ثم عدتُ إلى المدن الجديدة التي طالما سرت فقط بجوار أسوارها. ودخلتها للمرة الأولى، لأدرك أني قد وصلت متأخرًا. فقد رأيت بعيني الخراب الذي حل في بناياتها فأصبحت أثرًا بعد

fb/mashro3pdf

عين. مجرد أكوام هائلة من الحجارة والأسمنت المسلح، تتخللها أطلال بنايات متداعية. سرت وسط الدمار الهائل حتى دخلت فندقًا بائسًا كل نزلائه من الرجال العُزَّب، ظهر على سحنهم أنهم من عمال التراحيل أو الموظفين المغتربين، أخذت أحذر الرجال من الوحش القادم فيهرعوا إلى الخارج، ثم لمحت صديقي الذي لم أره منذ عقود واقفًا في ساحة الفندق الترابية. أكملت حديثي عن الوحش وأنا أنظر إليه فنظر إليَّ نظرة امتنان وانسل هو أيضًا خارجًا، من دون أن نتبادل أي حديث.

يدخلُ حيًّا

يدخلُ حيًّا لا يعرفه، ويسيرُ على غير هدى في شوارعه. يصادف في طريقه الكثير من المعالم التي لا تدله على شيء. هذا بنك، وذاك كشك. هذه صيدلية، وتلك بناية حكومية. يحاول أن يسجلها في ذاكرته على أمل أن تساعده في العثور على طريق عودته، لكنه من شدة إيغاله في طرق الحي المتعرجة يفقد الأمل تدريجيًّا في العودة، ويعدُّ نفسه لتقبُّل فكرة أنه هنا ليضيع إلى الأبد. ينعطف يمينًا فيدخل

fb/mashro3pdf

شارعًا يسكنه الرجال الجرذان والنساء الجرذان، فيسرع جزعًا إلى أول منعطف يصادفه. فيدخل شارعًا يسكنه الرجال البقر والنساء البقر، فيعجب بسكينتهم ويهدئ قليلًا من سيره. يظلُّ هكذا هائمًا على وجهه في الحي يتقلب في شوارعه بين الجزع والدهشة، بين الخوف والاطمئنان. حتى يصل إلى ميدان صغير، تزينه صورة واحدة متكررة لشاب، مكتوب عليها بجوار اسمه: «شهيد الحي». الصورة معلقة أعلى أعمدة الإضاءة، ويظهر فيها وجه شاب بألوان باهتة ناظرًا بلامبالاة إلى الكاميرا. ينظر إليه ويسأل نفسه: من منا النائم؟ أنا الذي أمشي كالمسرنم في الحي الذي لا أعرفه؟ أم هو الذي يقف أعلى الميدان مستبعَدًا من الحياة التي تجري أسفله؟ ترى هل يوقظه الآن اهتمامي به؟ أم توقظني نظرته اللامبالية إليَّ فأغادر تيهي في ذلك الحي وأعود إلى هدير التاريخ؟

يدخلُ حيًّا

يدخلُ حيًّا يسير فيه كل يوم. يلمح من حين إلى آخر معلمًا من معالم الطريق وهو يسير من دون انتباه حقيقي،

fb/mashro3pdf

فقدماه تعرفان الطريق، ولا حاجة إلى التدخل. اللمحات السريعة التي تلتقطها عيناه لا تكشف له المكان الذي يعرفه جيدًا، وإنما تؤكد فحسب حدسه بأن لا حاجة للانتباه للشارع، فليس هناك شيء جديد يمكنه اكتشافه. المحلات مفتوحة كالعادة، البشر تتسكع أمامها كالعادة، السيارات تسير ببطء بسبب الزحام كالعادة. يرى صاحب دكان البقالة في مكانه المعتاد، فيلقي عليه التحية بآلية، ويرد الآخر عليه بآلية. لقد أقلع منذ زمن طويل عن توقع أن يحدث شيء هنا، فالأحداث تقع دائمًا خارج هذا الحي الذي يعيش في سرمدية لا تنتهي، ولا يكاد يتصل بما يحدث خارجه. وفجأة تلتقط عيناه جملة قصيرة مكتوبة باللون الأحمر على أحد الحوائط، الجملة تقول: «خذ حذرك عندما تنازل الوحوش». يصاب بالدهشة ويبدأ في النظر جيدًا حوله، فيلمح الجملة نفسها مرشوقة على شجرة بخط رفيع، ثم يصادفها مرة أخرى بعد خطوات على باب محل مغلق، مكتوبة على عجل بخط مهتز. كان يعرف تتمة الجملة جيدًا، فقد قرأها كثيرًا في اليومين الماضيين في وسط المدينة، بعد الأحداث الدامية التي هزته. نصف الجملة المسكوت عنه كان يقول: «حتى لا تصبح مثلهم». سأل نفسه وهو يتذكر النصف الثاني من تلك الجملة: تُرى من يستيقظ

fb/mashro3pdf

في هذه اللحظة؟ أنا الذي أمشي كالمسرنم في الحي الذي أعرفه جيدًا؟ أم المدينة التي تنهض الآن لتسلك أطرافها المتباعدة في جملة واحدة؟

الأسماء

تمدد الصمت مجددًا. الغرفة التي كانت تعج بصوتيهما خلال اليقظة يرين عليها الآن صمت كثيف لا يقطعه سوى صوت تقلبه في الفراش، أو صوت سيارة قادم من الشارع المجاور. لا يزعجه شيء في الليالي الطويلة أكثر من هذا الصمت، إذ لم يكونا يتوقفان عن الحديث معًا خلال يومهما. لا يهم ما إذا كانا يتخاصمان أو يتصالحان، يتشاجران أو يتناقشان، ما يهم هو أن يبقى حبل الكلام موصولًا بينهما. أما في الليالي فترقد هي بجواره لساعات طوال وهو مستيقظ بسبب أرقه المزمن، ولا يستطيع أن يقول لها شيئًا. ليلة وراء ليلة يتطلع إليها محاولًا عبثًا معرفة أين هي، ثم يكتفي بمتابعة عينيها العسليتين وهما تسرعان في الحركة جيئة وذهابًا وراء جفنيها المنفرجين قليلًا.

fb/mashro3pdf

كلامهما اليومي كان طريقتهما في الحب، يقول لها شيئًا فتسمعه، ثم تقول له شيئًا فيسمعها، يهتز صوتها في جسده، وصوته في جسدها. وإذا لم يعد هناك ما يقال قد يفتعل معركة معها حول حنفية مياه المطبخ، وقد تروي له هي قصةً مختلقة وقعت لها مع الجيران أمس. لكن عذاب أرقه الليلي يتضاعف أكثر عندما يخرج أحيانًا صوتها واهنًا من قلب الصمت الطويل، وتأخذ في النداء. يسمع نداءها وهي نائمة بوضوح وسط غمغمات أخرى تتفوه بها من حين إلى آخر. أسماء لأناس بعضهم رحل، وبعضهم الآخر لا يزال حاضرًا. أسماء لأناس يعرفهم وآخرين لا يعرفهم. تنادي قائلة: «يا حنان»، «يا بابا»، «يا سامي»، «يا أنور»، «يا نيفين»، «يا محمود»، «يا أم سيد»، «يا سامية». بنبرة واحدة لا تتغير، بين الرجاء والاستغاثة. لا تخبرهم بشيء ولا تطلب منهم شيئًا. تنادي على أسمائهم فقط كمن يحدو الأرواح. في هذه اللحظات ينزاح عالم يقظتهما المشترك جانبًا، وتمتلئ الغرفة ببشر كثيرين. عالم بأكمله يخصها يتمدد داخل الغرفة وهو مطرود خارجه. كل ليلة ينتظر سدى أن يصبح جزءًا من هذا العالم، لكن اسمه يبقى غائبًا.

fb/mashro3pdf

مسألة استماع

نغمض أعيننا لكن آذاننا تبقى مفتوحة. نسمع تكات الساعة في الغرفة، وضجيج الشارع من النافذة. نسمع دقات قلوبنا عندما نطبق وجنتنا على الوسادة. ونسمع أيضًا هدير أصواتنا الداخلية التي لا تتوقف عن الهذيان. الدخول في النوم، مثله مثل الشرود، طريقة فريدة في الاستماع. فالدخول في النوم لا يتم إلا إذا أطلقنا الأصوات التي نسمعها وتركناها تسكن وعينا من دون أن نشبعها تركيزًا. عندما نسترخي فوق الفراش في انتظار النوم لا نرهف السمع من أجل معرفة مصدر الأصوات ومعناها، وإنما نستمع إليها من أجل نسيانها وتركها تتداخل. نحن نستمع لا لكي نميز صوتًا عن آخر، بل لكي ندمجها بعضها ببعض. واللحظة التي تمتزج فيها الأصوات الخارجية بالأصوات الداخلية امتزاجًا يجعلنا لا نستطيع التفرقة بينهما، هي اللحظة التي ندخل فيها إلى النوم، هي اللحظة التي نشرد فيها في العالم. من ينم لا يتوقف عن الاستماع، ولكنه يتوقف عن نسبة ما يسمعه إلى مصدره. ومثله من يشرد، فهو يغفل عن الأصوات المحيطة به، لا لأنه لا يسمعها، وإنما لأنه أصبح جزءًا منها. إلى أن يتكرر صوت واحد بإصرار، اسم علم مثلًا، عندها يلتفت الانتباه

fb/mashro3pdf

إلى التكرار لا المؤثر، ثم تنتقل الأذن إلى طريقة أخرى في الاستماع، هي طريقة البحث عن المصدر وتوجيه التركيز إليه من أجل فهم الرسالة التي يرسلها. فيفيق النائم وينتبه الشارد.

صوتك

إذا صحَّ أن السُّلطة تتحدث لغة أفكارك ورغباتك، وإذا صح أنها لم تعد وحشًا تصارعه خارجك بل إنها أصبحت تسكنك وتتحدث بصوتك، عندها سيكون صمتك هو أبسط طريقة لتعطيل لغة الخراب تلك. فالصمت هو لحظة اصطدام الرغبة في الفعل بإدراك ما قد يتضمنه من نقائض. لكن الصمت ليس كافيًا. فبالرغم من أن صمت النائم هو أتم وأقوى تعبير عن رفض الانخراط في تكوين موقف أو الإقدام على فعل، فإنه لا يزال خاضعًا للسُّلطة، لأن رفض تكوين موقف هو في النهاية موقف في حد ذاته. لذا فإن الضربة الحقيقية الموجعة ضد لغة الخراب تأتي فقط من الصوت الهاذي. الغمغمات التي ينطقها النائم، ولا يُفهم معناها، تُخرجه من ملكوت السُّلطة، وتربك لغتها. فالنائم

fb/mashro3pdf

إذا تحدث لا يقول شيئًا، وإنما يُحرر تيار الكلمات. لا يبحث عن جمل تضيء المعاني، وإنما ينطق شظايا تزيدها إعتامًا. لغته مهشَّمة، منقلبة على ذاتها، لا تخرج من فم تقف وراءه ذات، وإنما تتكون مقاطعها كالغيوم في السماء.

دوزنة

الإيقاع هو موسيقى المكان الداخلية التي لا يمكن الاستماع إليها بالأذن المجردة. وكل ما في البيت يهتز برفق على وقعه، ينضغط ويتخلخل مع تموجاته، حتى وسط صمت النوم. ولأن الإيقاع الذي يؤسس داخلية المكان ومسارات الحياة فيه لا يمكن الاستماع إليه بالأذن المجردة، فإنه يبقى عصيًّا على الإدراك، منسحبًا دومًا إلى الخلفية، فلا يمكن الإمساك به أو إدراكه في ذاته، وإنما يمكن إدراكه فقط عندما نشترك فيه، ونصبح جزءًا منه، أي عندما يخترقنا ونخترقه. لذا فالنوم في الأماكن غير المألوفة هو أمر يجب أن يُحمل على محمل الجد. فالنوم بوصفه إيقاعًا جسديًّا يستطيع بسهولة الاتصال بالإيقاعات المحيطة وترجيع أصدائها. والنائم في مكان جديد يكون

fb/mashro3pdf

عُرضة لإيقاعه المجهول، تُؤرجحه اهتزازات لا يعرفها، وتخترقه ذبذبات لا يألفها. النوم بهذا المعنى هو صندوق ترددات حيٌّ، ينفعل بما يدور حوله، يتوافق ويتنافر، يتآلف ويتشوش. يلتقط إيقاع المكان، ويوالفه بإيقاع الجسد، ليبدأ حوار طويل لا يعرف أحد ماذا سيسفر عنه. ليلة وراء ليلة يتلمس النوم إيقاع المكان، لا لكي يدخله دائرة المسموع، وإنما لكي يبقيه في مكانه بعيدًا في الخلفية، بعد أن يجعل جزءًا منا يتسرب إليه. ليلة وراء ليلة يعيد النوم إلينا طبيعتنا الإيقاعية، فنصبح أوتارًا، قادرين على الانفعال بالموجات والذبذبات، وقادرين على الاتصال بما هو خارجنا لتكوين داخليات جديدة. لذلك فالشعور بالانتماء إلى المكان لا يكتمل سوى بعمل دؤوب يحدث في صمت تحت ستار الليل، محصلته تآلف معقد بين النائم والمكان الجديد، حتى يتشكل إيقاع متناغم.

نهج البلاغة

استيقظتُ مبكرًا في صباح يوم عطلتي على مكالمة تلفونية مزعجة. استفهم صوت المتحدث عن هويتي، وكان

fb/mashro3pdf

صوته بعيدًا غير واضح، ويتحدث بلهجة ركيكة. ذكرت له اسمي، فقال لي الصوت إن اسمي على لائحة من يجب استدعاؤهم عند الطوارئ، وإنني يجب أن أحضر إلى العمل فورًا لأن طارئًا قد وقع. قلت له وأنا منزعج إن هناك لبسًا بالتأكيد، وإنني لا أعرف عن أي لائحة يتحدث، ثم سألته:

- من أنت؟

فقال:

- لا بأس، سوف آتي بعد قليل.

توقفت عند نبرة صوت الرجل الغائمة، وذكرتني بنبرة صوت رجل روسي الأصل، عملت معه سابقًا في قسم آخر من أقسام الشركة. بعد المكالمة نهضت من فراشي ورأيت الضوء البعيد القادم من مكتب زميلي. كان الظلام دامسًا، وسرت حتى وصلت إلى نقطة الضوء. وحكيت لزميلي بقلق عما حدث. فطمأنني وقال إنه مرَّ بهذا الموقف من قبل، وإن عليَّ أن أقيم دفوعاتي على الغموض المحيط بالتزامات العمل، فطالما لا توجد قواعد ثابتة وملزمة لجميع الأطراف فيمكنني أن أقول دائمًا إنني لم أكن أعرف. لكني لاحظت أن لغة زميلي تأتيني أيضًا مشوشة، إذ يضيع الكثير من كلماته في الطريق إلى أذني، حتى إني طلبت منه مرة أن يعيد ما قاله. ثم انكب

fb/mashro3pdf

زميلي على عمله ووقفت أنا بجواره ساكتًا حتى حانت مني التفاتة إلى باب الدخول المجاور لمكتبه، فرأيت الرجل الروسي ومعه رجل آخر يدخلان من باب القاعة. كان كلاهما يرتدي بذلة كاملة، تكسو ملامحهما أمارات الجدية. وقف الرجلان أمامي ثم رفعا قبعتيهما وأومآ إليَّ. صدق حدسي إذن، فهذا هو الروسي الذي سبق وتسبب في طرد زميلة لي كنت معجبًا بها. نظرت إلى زميلي الحالي المنكب على عمله فلم يعرنا انتباهًا، فتقدمت الرجلين وسرنا داخل ظلام القاعة بينما يتناهى إلى أذنيَّ صوت انسحاب شبشبي البلاستيكي على الأرضية العارية. عندما وصلنا إلى سريري المجاور للمكتب قال الروسي بصوته المنخفض:

- هنا تعمل إذن!

فقلت له:

- هنا لا أعمل أنا، فكما ترى قد استيقظت للتو.

وللمرة الثالثة يصك أذني تشوُّش اللغة واضطرابها، هذه المرة لغتي أنا. أيُّ جملة هذه! أنا لم أسمع من قبل جملة أكثر ركاكة من «هنا لا أعمل أنا»، لا أحد يقول أبدًا جملة كهذه. أضأت أباجورة مكتبي وجلست على كرسيه وأنا أجاهد لكي أبقى متماسكًا، وجلس الرجلان على سريري بعد أن أزاحا الغطاء جانبًا. حاول الروسي أن يلطف الجو

fb/mashro3pdf

بتذكيري بفترة عملنا معًا، في حين التزم الثاني الصمت. وأخذت أنا أقدر خطورة الموقف وأنا أهز رأسي مؤمِّنًا على كلام الروسي.

غبطة

فردوس ابن العالم الذي ينفتح كل ليلة لا يكتمل إلا بالخروج منه. فالنائم يغرق في غبطة سرمدية يظن أنه سيبقى فيها إلى الأبد. غبطة ليست هي غبطة المتأمل، ولا هي غبطة المتدين، وإنما هي غبطة ابن العالم وهو ينفلت خارجًا من زمن يومه الخاوي، ويغرق في زمن آخر سرمدي. هذا الزمن الآخر ليس سوى الماضي، وسرمديته تنبع من انحلال الوثاق بينه وبين الحاضر المتواري شيئًا فشيئًا. فالماضي لم يعد يشكل ظلَّ اللحظة الحاضرة وبطانتها، وإنما أصبح الآن قائمًا بنفسه. الماضي المحمَّل بالدروس والعبر، والذي يُستحضَر في كل لحظة من لحظات اليقظة، يفُكُّ الآن ارتباطه بالحاضر، ويَستحضرُ هو النائمَ، فينساقُ إليه الأخير كالمسرنم. حاضر النوم إذن هو الماضي، والنائم لا يسمع خلال النوم سوى

fb/mashro3pdf

ندائه، فيغوص في طبقاته وتضاعيفه حد الغرق. يغرق فيه ويظن أنه الخلاص. بيد أن نداء الماضي لا يبحث عن ذلك الخلاص، فهو لا يشبه نداء السرينات العذب، الذي سحر البحارة الإغريق فأغرقهم، وإنما هو نداء ينبعث من قلب كل فرص الماضي المهدرة، ورغباته المحبطة. نداء الماضي يبحث عن خلاص آخر. فجحافل الساعات الضائعة والأسئلة المؤجلة والجراح الغائرة التي تسكن الماضي لا تعود إلى النائم وتشق طريقها داخله لكي يوقف ضياعها بضياعه داخلها، وإنما تعود لكي ينظر إليها فقط. والحلم هو نظرة النائم تلك، هو يقظته من دون أن يستيقظ. الحلم هو الحاضر الآخر الذي يزغ من قلب الماضي عبر أشد الطرق وعورة. واللحظة التي ينتبه النائم لغرقه في الماضي السرمدي، هي اللحظة التي ينهض فيها الماضي داخله، فتقع عليه عين النائم. تحت هذه النظرة تدب الحياة في الماضي فيخرج عن نفسه ليصبح نفسه، ويتشكل الحلم كتاريخ موازٍ. فقط عندما يعود الماضي إلى النائم لا كشاهد شاحب على ما انتهى، وإنما كقوة تخلق احتمالات راهنة لِما ولَّى، فقط ساعتها يصبح ماضيًا. فالماضي ليس ذكرى لما مضى، وإنما حاضر خصب لما يرفض المُضي. وبذلك يتم الخلاص. فالماضي لا يريد خلاصًا آخر سوى هذه النظرة التي

fb/mashro3pdf

تلده من جديد. في كل ليلة تنفتح أبدية، ولا تكتمل تمام الاكتمال إلا بالخروج منها عبر يقظة الحلم، فيبرق في قلبها ماضٍ جديد لم يحدث من قبل.

بلا نجوم

الإغماءة هي فساد النوم. تحدث عندما يفشل النوم في التحرر من الثنائيات التي تحيط به، ومن الواجب الوظيفي المنوط به، فيتحول إلى مجرد انطفاءة موجزة للوعي. الرأسمالية الصناعية اختزلت النوم إلى وظيفة غايتها منح الوعي المتهالك قسطًا من الراحة، وقننته في وردية مدتها ثماني ساعات، يقوم المرء بعدها إلى وردية المصنع. أما الرأسمالية العليا، التي لم تعد تنتج شيئًا، فأصبحت تنظر إلى النوم باعتباره ثقبًا أسود. النوم فيها هو إغماءة قصيرة، أو انقطاع مكروه لتيار التواصل، لذلك يجب الإفاقة منه سريعًا، والعودة العاجلة إلى رحاب حال الاتصال. بعد أن حلَّ اقتصاد الانتباه محل اقتصاد الإنتاج، أصبح الوعي عصابيًّا، يدور في دوائر لا تنتهي، ويهيِّجه وعد لا يتحقق أبدًا. كيف يمكن لهذا الوعي أن ينام؟ فهو

fb/mashro3pdf

يخشى دائمًا أن يفوته شيء، يخشى أن يتحقق الوعد الذي لا يعرفه وهو غائب. هذا الوعي لا يمكنه سوى أن يظل منتبهًا حتى يسقط في إغماءة. ليل الرأسمالية يظل يقصر ويقصر حتى يكاد يختفي، والنوم فيه هو تقنين للغيبوبة الطويلة في جرعات صغيرة.

سحر البروليتاريا الخفي

فوق سطح الكثير من اللوحات والصور يغفو عمال وفلاحات، فواعلية وأبناء شوارع. يهدهم التعب فيتسطحون في أماكن عملهم، أو ينامون متكئين بعضهم على بعض فوق أرصفة الشوارع. يراهم المشاهد وقد أخذت بعضهم خطوف النوم العميق، أو أسدل بعضهم الآخر جفونه فقط. نوم البروليتاريا كما يظهر في الكثير من اللوحات والصور يحدث دائمًا في مكان العمل، أو في كنفه. إذ لا يحق للبروليتاريا أن تمتلك مكانًا خاصًّا بها، فهي تعيش فقط في الحيز الذي اكتسبت منه اسمها، أي مكان العمل. كما لا يحق لها أن تمتلك زمانًا خاصًّا بها، فليس لديها ليل أو نهار، وإنما هناك فقط

fb/mashro3pdf

ساعات لا تنتهي من العمل، يتخللها سقوط خاطف في النوم بسبب التعب. ما الذي يجتذب ابن الطبقة الوسطى هكذا إلى نوم الطبقة العاملة؟ ما الذي يثيره في رؤية أجسادها المنهكة حدَّ النوم؟ هل هو التلصص؟ أم التعاطف الرخيص؟ أم لعله ممارسة حق الملكية الذي منحه لنفسه؟ فنوم ابن الطبقة الوسطى محمي دائمًا بالحوائط والأبواب، أما نوم ابن الطبقة العاملة فهو منتهَك الحرمة، مسفوح على الطرقات لمن يرغب في امتلاكه. نوم الطبقة العاملة الذي يسجله أبناء الطبقة الوسطى في لوحاتهم وصورهم لا يخاطب سوى أبناء طبقتهم. فهو قد يثير مشاعرهم، أو في أحسن الأحوال يدعوهم لكي يمنحوا الكادحين بعض العطف، وأحيانًا بعض الحقوق، لكنه في أغلب الأحوال لا يخاطب النائمين. فابن الطبقة العاملة ليس من حقه أن ينام امتناعًا عن العمل، أو كسلًا أو ضجرًا، أو حتى أن ينام لأنه يرغب في النوم. من حقه فقط أن ينام مهدودًا من التعب والكدح، أن يبقى عضوًا في طبقة أسطورية لا يخرج منها. الطبقة العاملة تعمل حتى وهي نائمة. تعمل في صور الطبقة الوسطى لكي تختزل نفسها وكفاحها إلى مواضيع مثيرة للتعاطف، فتجيش المشاعر، ويثبت الوضع.

fb/mashro3pdf

يعودُ كل يوم متأخرًا. يدلف إلى الصالة بعد أن يفتح الباب، ثم يضغط على مقبس النور. يتبدد الظلام لكن يبقى البيت غارقًا في الصمت. يبقى في موضعه لوهلة مرهفًا السمع، ثم يخلع حذاءه، ويتجه إلى غرفة أمه ويدفع الباب الموارب برفق. يظل للحظات قلقًا يتسمَّع إلى صوت تنفسها، حتى يتناهى إليه. ثم ينادي عليها وينتظر فلا تجيب، فينادي عليها مرة أخرى فتفيق وتسأله مفزوعة إذا ما كان قد جاء، فيقول لها إنه قد جاء بالفعل، فتسأله إذا ما كان قد تناول العشاء، أم يريد أن تحضر له شيئًا يأكله، فيقول لها ألَّا تشغل بالها. بعدها يذهب إلى غرفته لكي يغير ملابسه. ثم يدخل المطبخ ويُعد عشاء خفيفًا، ويجلس أمام التلفزيون، يقلب القنوات ويتناول الطعام. حتى يصله صوت غطيطها المنتظم قادمًا من حجرتها. جدول من الخرخرات المتراكبة يسلكه إيقاع تنفسها. تمتزج الخرخرات الناعمة بصوت التلفزيون، فينصت في البداية إلى الصوت القادم من حجرة نومها ثم يترك نفسه لهذا المزيج المهدهد. لم يحدث يومًا أن جاء صوت غطيطها في توقيت مختلف. حتى في الأيام التي كان يصل فيها إلى بيتها مبكرًا فإنه لا يسمع لها صوتًا عندما يدخل، وإنما يعلو صوت غطيطها دائمًا وهو جالس أمام التلفزيون. منذ أن أصبحت وحيدة وهي تنام بلا غطيط حتى يصل هو

fb/mashro3pdf

إلى البيت. تستمر وصلة الغطيط لنحو نصف ساعة، يتشبع هواء الغرفة بخرخراتها، وعندما تنقطع يكون جسمه قد ثقل وأصابه الخدر فيضغط على مفتاح الريموت لتنطفئ صورة التلفزيون ويذهب إلى غرفته لكي ينام.

قلب صغير

ليس السير في الشارع بمسدس وإطلاق النار عشوائيًا على الجماهير حلمًا جامحًا، أو ضربًا من الجنون، وإنما هو الفعل السريالي في أبسط صوره كما عرَّفه «أندريه بريتون». في هذا الفعل تتجلى القوة الهائلة التي أطلقتها السريالية عبر إزاحتها الحد الفاصل بين النوم واليقظة. فقد وضعت الحركة السريالية هذا الحد في قلب معركتها ضد البرجوازية، واعتبرت أن الصراع ضد فصل النوم عن اليقظة هو في الأساس صراع سياسي. فالبرجوازية تؤسطر الحلم لكي تحتفظ بالوضع الحالي كما هو عليه، وتختزل خبرة الواقع في كليشيهات أخلاقية، في حين تسعى السريالية لتفجير الواقع وتخصيبه بخبرات لاواعية، معتمدة في ذلك على خلطه بالحلم. هذا هو القلب الصغير الذي لا يزال نابضًا وسط ركام الأعمال السريالية، حتى بعد أن بارت بضاعتها.

fb/mashro3pdf

فالسريالية التي لم تكن تفهم نفسها في الأساس على أنها حركة فنية فقط بقدر ما هي فعل ثوري، أو على الأقل فعل في خدمة الثورة، اكتشفت في النوم منجمًا سياسيًّا. اكتشفت أن النوم ليس صنو السلبية السياسية، بل يصلح لكي يكون فعلًا ثوريًّا إذا ما تمت إعادة الحلم، بكل نزقه ولامعقوليته وغرابته، إلى الواقع. «أندريه بريتون» واضع «المانيفستو السريالي»، والعضو المطرود من الحزب الشيوعي الفرنسي، يقول في كتابه «الأواني المستطرقة» إن الرغبة التي تحرك المرء وهو مستيقظ تستمر هي نفسها في تحريكه وهو نائم. وعوضًا عن الانشغال بتفسير الأحلام، يقدم «بريتون» محاولة لقراءة الواقع كحلم. فالواقع وفقًا لـ«بريتون» يصلح إذا دقق المرء جيدًا في ملابساته المنفلتة من أي منطق غير منطق الرغبة، يصلح لفهمه على أنه حلم.

خيط

منذ أن عدتُ من مدينتكِ البعيدة وأنا أرى وجهكِ نائمًا بجانبي كل فجر. أفتح عينيَّ في اللحظة التي يكاد يتبين فيها الخيط الأبيض من الأسود، فأرى وجهك يقابل وجهي

fb/mashro3pdf

مباشرة. وجهك كما أراه الآن لم يعد صفحة ترتسم عليها ملامحك. فلقد اختفى لون عينيك تحت جفنيك، وتبخر النمش القليل الذي يعلو خدك الأيمن، وانزاحت الحبَّة الصغيرة التي تعلو شفتك عندما تبتسمين. منذ أن تركتكِ وأنا أرى وجهك كل فجر بجواري كما لم أرَه من قبل، أراه في كماله، ساكنًا مغمض العينين. أراه غارقًا في ذاته، مكتفيًا بنفسه، لا ينتظر أن تقع عليه نظرات أحد أو تحركه كلمات أحد. أختلس نظرة متعجلة نحوك، ثم أغمض عينيَّ بسرعة. فقد كنت أخاف أن أشهد اللحظة التي ستفتحين فيها عينيك، لأني أعرف أنك عندها ستختفين على الفور بمجرد أن تلتقي عينانا، وسينفصل الخيط الأبيض عن الأسود حتمًا.

وظيفة المؤلف

يحدثُ في أوقات الأزمات أن تشق التجارب العنيفة طريقها إلى الحلم، ثم تتناسل من رأس إلى رأس، مع تغيرات محدودة تتماشى مع الرأس الذي تحل فيه. أثناء حرب تُشن بالطائرات على مدينة ما قد ينمو حلم يدور

fb/mashro3pdf

حول سماع دوي انفجار مفاجئ أثناء السير في الشارع، يليه التخبط بحثًا عن مخبأ من الفوضى المحيطة. أو خلال موجة احتجاج تؤججها المظاهرات قد يولد حلم يدور حول الفرار هربًا من الشرطة ثم الدخول وحيدًا أو برفقة أناس غريبي الأطوار إلى مبنى مجهول. هذه الأحلام تتناسخ، وتنتقل كل ليلة من شخص إلى آخر. قد تتغير تفصيلة هنا أو هناك، لكن يبقى الحلم نفسه في المجمل. تُرى هل هذا الحلم مُنتج فردي أم جمعي؟ الذات الحالمة تقول إنها أقرب للحلم من نفسه، تعيش تفاصيله بكل خلجاتها، تمده بذكرياتها ولحظات حياتها. والجماعة تجادل بأنها هي من يصوغ التجربة الجمعية التي يكررها الحلم، وأنها هي من يمنحه القدرة على الاستمرار والتناسل. لكن هل تختلف أحلام الاضطرابات كثيرًا عن الأحلام «العادية»؟ أليست الأحلام في الأوقات الأخرى، على تنوعها الشديد، مليئة بتيمات قابلة للتكرار والانتقال من رأس إلى رأس، مثل السقوط من علٍ، أو الحفاء، أو الخرس، إلخ؟ الحلم على الأرجح مجهول المصدر، ومن الصعب تصور أن أحدًا بعينه يقف خلفه، لأنه يستعصي دائمًا على التحكم. لذلك لعل من الأنسب الإجابة عن السؤال حول مصدر الحلم بنفي الاحتمالين. فالحلم لا يمكن نسبته إلى فرد أو إلى جماعة، بالرغم من

fb/mashro3pdf

أن كليهما حاضر ومؤثر فيه، لأنه لا يحتاج إلى مؤلف، فهو ينبع من اختفاء الفاصل بين الذات والعالم أثناء النوم، وبالتالي تنتفي عملية التأليف التي تحيل إلى مصدر بشري، ليحل محلها الهذيان مجهول المصدر.

الكتابة

لاحظتُ أن وزن وائل قد زاد قليلًا، فلم يكن نحيفًا ورشيقًا كعهدي به، وإنما نبتت له كرش صغيرة عندما رأيته. وقلت لنفسي وأنا أتأمله: لا شيء يخرج عن سطوة الزمن، لا شيء يوقف عمله في أجسامنا سواء ظلت تنبض أو تحولت إلى صور. فمن يطوله الزمن يترهل جسمه أينما كان وينوء كاهله بالأحمال. وبالرغم من ملاحظتي الخاصة بوزن وائل الزائد فإن حقيقة وجوده نفسها بقيت هامشية، كأمر عادي تعيه من دون أن تجد حاجة لأن تدقق فيه، فهي في النهاية ليست المرة الأولى التي أراه فيها. هل قلتُ له بالفعل إنني أود أن أقرأ له شيئًا لأنني لم أقرأ له منذ زمن؟ لو صحَّ أني وجَّهت إليه هذا الطلب، فستكون هذه هي المرة الأولى التي أخاطبه

fb/mashro3pdf

فيها مباشرة. فوائل لم يعد يتكلم معي منذ أن رحل. يمر من حين إلى آخر على مناماتي، يغشى مجالسها، يشارك الحاضرين شرابهم وطعامهم، بل يثرثر مع هذا وذاك بصوت لا تصلني منه سوى همهمات، لكنه لم يعد يتكلم معي. ربما لذلك تعلق طلبي بالكتابة، فهي صمتنا المشترك الذي لم ينقطع بعد.

فيتيشية

الحلم قطعة من الليل نعود بها كل يوم. وككل أشياء الليل الملتبسة لا ينطوي الحلم على منفعة أو فائدة واضحة. مجرد ارتعاشة نجم بعيد سرعان ما يغمره نور الصباح الباهر فيذوي. لذلك فإن الخطر الأكبر الذي يتهدد كتابة الحلم هو تحويله إلى نص، أي تكريسه كرأس مال أدبي، واستخلاص قيمة فنية منه. كيف يمكن إذن حماية الحلم الذي خلَّفه مؤلف مجهول من أن يصبح نصًّا للكاتب الذي رآه؟ كيف يمكن إنقاذه من فيتيشية العمل الأدبي؟ ربما سيتحقق ذلك إذا لم تسع الكتابة إلى إحضاره إلى عالم الأدب، وإنما إلى الذهاب إليه هناك في عالم النوم. الحلم

fb/mashro3pdf

ليس مشهدًا فاتنًا، أو سردًا طريفًا، تريد الكتابة أن توثقه، وإنما هو جرح يندمل، تريد الكتابة أن تتلمس القوة التي تشفيه. والقوة الشافية التي تعمل على معالجة الجراح هي قوة التغير والتحول التي لا تترك شيئًا على حاله، وبفضلها يتغير كل شيء ويخرج من طور إلى طور. تتحرك هذه القوة صوب الماضي وكوارثه، ثم ترسم عالمًا يشبه العالم. في هذا العالم المشابه الذي رسمته لا تتكرر الكوارث كما حدثت وإنما تفارق نفسها لتصبح شيئًا آخر. غير أن هذه القوة السحرية متطايرة وهشة ولا يكتمل عملها أبدًا، فالكوارث لا تنتهي، والجراح لا يكتمل اندمالها. قوة التغيير تلك لها اسم آخر، وهو الشعر. وعندما تترك الكتابة نفسها للقوة التي تعمل في عالم الحلم، تبتعد شيئًا فشيئًا عن المشهدية، وتقترب شيئًا فشيئًا من نفسها، تقترب شيئًا فشيئًا من الشعر. فالشعر هو كل ما تبقى من الأدب في عالم اليوم، هو منتجه الأقل فيتيشية والأكثر صدقًا، بعد أن أصبحت الرواية قانون السوق الأدبي وعُملته. من يحتاج القصيدة اليوم؟ لا يوجد ما هو أقل نجاحًا ومنفعة وتسلية اليوم من قصيدة. فالقصيدة هي الطرف الأبعد من طيف الأدب، والمنتج الأدبي الوحيد الذي لا يزال مطمئنًا إلى غرابته.

fb/mashro3pdf

ولادة ثانية

كتابة الحلم بعد الاستيقاظ هي ولادته الثانية. فالحلم كما نعرفه لا يكتمل سوى بولادتين، الأولى خلال النوم، والثانية عند الاستيقاظ. استعادة الحلم لا تقل أهمية عن رؤيته أثناء النوم، فهي العملية التي تُدخل الحلم إلى اليوم، وتُكسبه مادية بعد أن كان طاقة نفسية. من دونها يفلت الحلم ويتطاير بعيدًا. الولادة الثانية لا تمنحنا أبدًا الحلم كما كان، بل تعمل كمغناطيس يجذب إليه الملامح الرئيسية للحلم، يشكل عظامه ثم يكسوها لحمًا. وهي في عملها ذلك لا يمكنها أن تنقل كل درجات الطاقة النفسية المرهفة التي تسري فيه كما حدثت خلال الولادة الأولى. بل إنها قد تحرِّف في بعض الأحيان تفاصيل الحلم، أو تضيف إليه تفاصيل جديدة. لكن بالرغم من اتساع ثقوب الولادة الثانية فلا مناص منها، لأنها هي من يستلم هدية الحلم. بعدها فقط يمكن تفسيره أو روايته، أو حتى الاحتفاظ به. وبذلك يكون الحلم ابنًا لليقظة في ولادته الثانية، كما كان ابنًا للنوم في ولادته الأولى. أو لعله تجسيد للامتزاج بينهما. هذا الامتزاج يحدث أيضًا على الجانب الآخر. فمجريات الواقع العادية التي لا تمت ظاهريًا بصلة إلى الأحلام

fb/mashro3pdf

والهذيانات والرؤى وأحلام اليقظة، هذه المجريات الواعية لا تكتسب ثقلها أو ظلها أو روحها إلا من خلال ارتباطها بالمخيلة. فقط عندما يصطدم حدث الواقع بكل ما يسري في الذاكرة ويمتزج بسوائلها ورطوبتها يكتسب بُعدًا وتأثيرًا، أي يصبح ذاكرة حية. إدراك الواقع بهذا المعنى يشبه إدراك الحلم لأنه لا يتم سوى بولادة جديدة، ولادته في الذاكرة، وبتحوُّل يُدخله من حال إلى حال. الولادة الثانية في كلتا الحالتين لا تقل أهمية عن الولادة الأولى، إن لم تفُقها. فهي ما يرسي مبدأ الزمن باعتباره تحولًا وتغيرًا مستمرين، من دونها تبقى الجواهر أزلية، ويبقى الأصل ثابتًا. من دونها لا نعرف معنى الفقد ونبقى جامدين.

طرف غائب

- لكننا نقول إنها تمطر، أو إن الثورة حدثت، أو إننا قد نمنا. فمن قام بكل ذلك؟

- المطر يحدث في الخارج دائمًا، ولا يحتاج إلى مشاركتي، لذلك لا يمكنني أن أقول: «هذا مطري».

fb/mashro3pdf

لكن الثورة فعل جماعي، بإمكاني أن أشارك فيها أو لا أشارك، وعندما أقرر المشاركة أنزل إلى الشارع فأصبح جزءًا منها، لذلك يمكنني فقط أن أقول: «هذه ثورتنا». أما النوم فيحدث لي أنا شخصيًّا، حتى لو كنت غائبة وقت حدوثه، لذلك بإمكاني أن أقول: «هذا نومي».

- المطر هو أيضًا فعل جماعي كالثورة. فكلاهما نشترك في صنعه ولا نقوم به وحدنا، حتى وإن اختلفت أهمية دورنا في كليهما. كما أن كليهما مفتوح على طرف غائب لا يمكن التنبؤ به.

- المطر شديد الفردية. فلا توجد قطرة مطر تشبه الأخرى.

- النوم أيضًا شديد الفردية، لكنه غير شخصي. فنحن لا نعرف من يقوم به. أو أن من يقوم به هو دائمًا طرف غائب.

- النوم يصبح شخصيًّا بعد أن أستيقظ.

- والثورة تصبح شخصية بعد أن تنتهي.

- وحبي لك؟

- حبك لي لا يجعلني أدور حولك كما تدور الفراشة حول النور، وإنما يغمرني في بحر وقف الآخرون بساحله.

fb/mashro3pdf

كنا قعودًا في مكان غير واضح المعالم، يشبه أماكن أخرى كثيرة. من موقعنا ذلك رأينا «نادين» وهي تسير بجوار نبيل في ممر صغير متصل بالمكان الذي كنا نقعد فيه. كانا يتحدثان ببهجة كبيرة عن تفاصيل يومية صغيرة، ملاحظات عابرة عن أشياء حصلت في اليوم السابق، أو تعليقات على كلام بعض الأصدقاء. حوار عادي يشبه تلك الحوارات التي يمكن أن تتكرر بين زوجين كل يوم، لكنه في الوقت نفسه كان حوارًا يبدو مبهجًا للغاية. «نادين» ونبيل كانا يقطعان الممر متخاصرين، ونحن نتابعهما من الخلف. بعض الجالسين استغرب ما يحدث، لأن «نادين» قد ماتت، فتطوعتُ وأوضحت لهم أن ما يرونه أمامهم يحدث كل يوم.

ثم رأينا نحن القاعدين «نادين» تسير عائدة في اتجاهنا بعد أن أوصلتْ نبيل إلى باب البيت. كانت تتحرك بخفة وتلقائية من يتحرك في مكانه الخاص. وكلما اقتربت زاد قلق الحاضرين. حتى وقفت «نادين» أمامنا وقالت:

- في إيه يا جماعة؟

بدأ الجالسون ينظرون بعضهم إلى بعض. وأخيرًا تطوعت أنا، مرة أخرى، لكي أطمئن الناس وأفهمهم أن الواقفة

fb/mashro3pdf

أمامنا الآن ليست «نادين» الحقيقية وإنما صورتها. ثم مددت يدي لكي أثبت كلامي للحاضرين، وأمسكت ذراع «نادين». وعلى عكس ما كنت أنتظر، لم تكن ذراعها قبضًا من ريح، وإنما ذراعًا حية من لحم ودم. استغربَت «نادين» قيامي بهذه الحركة وقالت بعصبية:

- يا جماعة في إيه؟ فهموني!

أُسقط في يد الجميع ولم يعد ممكنًا تحمل التوتر الذي خيم على المكان. وقفت «نادين» تنظر إلى الجميع شزرًا، والجالسون ينظرون إليها باستغراب. بقينا هكذا لوهلة مشدودين، ثم انفجر الجميع فجأة في نوبة ضحك عاتية، بمن فيهم «نادين». كنا جميعًا في غاية السعادة، حتى إننا انهرنا على الأرض معًا من فرط الضحك.

fb/mashro3pdf

fb/mashro3pdf

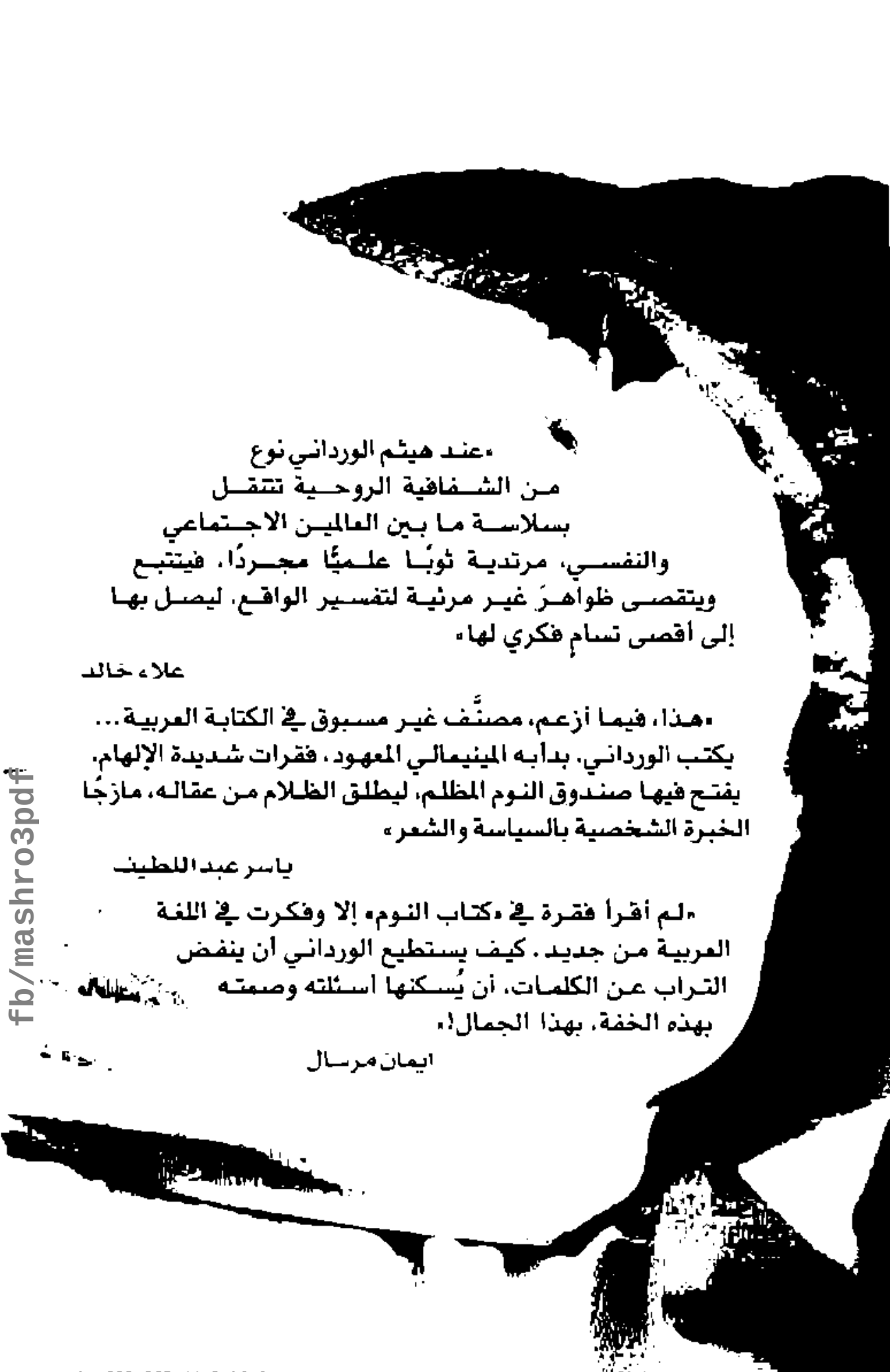

«عند هيثم الورداني نوع
من الشفافية الروحية تتنقل
بسلاسة ما بين العالمين الاجتماعي
والنفسي، مرتدية ثوبًا علميًا مجردًا، فيتتبع
ويتقصى ظواهرَ غير مرئية لتفسير الواقع، ليصل بها
إلى أقصى تسامٍ فكري لها»

علاء خالد

«هذا، فيما أزعم، مصنَّف غير مسبوق في الكتابة العربية...
يكتب الورداني، بدأبه المينيمالي المعهود، فقرات شديدة الإلهام،
يفتح فيها صندوق النوم المظلم، ليطلق الظلام من عقاله، مازجًا
الخبرة الشخصية بالسياسة والشعر»

ياسر عبد اللطيف

«لم أقرأ فقرة في «كتاب النوم» إلا وفكرت في اللغة
العربية من جديد. كيف يستطيع الورداني أن ينفض
التراب عن الكلمات، أن يُسكنها أسئلته وصمته
بهذه الخفة، بهذا الجمال!»

ايمان مرسال

fb/mashro3pdf